

بثينة العيسى

عَروسُ المَطر

رواية

عَروسُ المَطر

رواية

بثينة العيسى


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عَروس المَطر

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعة الدار العربية للعلوم ناشرون الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0538-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

لأنكِ تجيئين قبل البدء..

وقبل الكلّ

وقبل القلبِ

وقبل القبلِ

أحبّكِ

أمّي.

دواؤك فيك وما تشعرُ

وداؤك مِنك وما تُبصرُ

وتحسبُ أنك جرمٌ صغيرٌ

وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

"الإمام علي بن أبـــي طالب"

.. ولكن!

.. ما زلتُ لا أعرفُ
من أيِّ هذي الثقوب
أنفذُ
لأخرجَ من هذا الوجه!

الهواء

العماءُ يتقوّض/الحضورُ جنين

1

عندما فتحت الباب كانت رائحة الشقة تشبه رائحة السردين، رغم أنني وشقيقي، لا نحب السردين ولا نأكله..

كانت ملابسنا المغسولة حديثاً منشورة على الأرائك، وقد تُركت وحدة التكييف مفتوحة لتساعد في تجفيفها، والبطانية الزرقاء المهترئة مرمية على الأرض مع وسادتين، وعلبة بسكويت صفراء، ورقائق بطاطا شيبس متكسرة، وتل من الأقراص المضغوطة، وكثيرٌ من الأسلاك المتشابكة وقد تكدّس الغبار في الفراغات بينها: غبارٌ اسفنجي تحوّل إلى ندف لفرط ما نسج حضوره حول نفسه.. كانت شاشة التلفزيون مضاءة وعليها صورة مجمّدة لسيارة سباق تقطع شارعاً..

واضحٌ أن "أسامة" كان هنا..

شمّرتُ عن ساعديّ، أردت - للحظة - أن أرتب الفوضى، أن أقشع الرطوبة عن وجه المكان، والهواء الآسنُ القديم، ورائحة الخلّ ورقائق البطاطا و.. أردتُ أن أغيّر ما ينبغي أن يتغيّر، بدا كل شيء وكأنه يطفرُ من جسده ويعومُ في الفراغ بفوضى، ماهيات تتداخل بمياعة وتتجرأ على بعضها، تذوّب حضورها في كلانية شرهة تغمر المكان، كان ينبغي أن أتدخل! هكذا خيّل إلي.. ولعلي لم أفكّر بالأمر حقيقة، وامتثلتُ لما بدا لي (أو لم يبدُ) أمراً محتوماً، ما حدث ببساطة -

في لحظة القرار بعينها - هو أنني أحببتُ، ربما من ألوان الأثاث، الحمراء بقسوة، ربما من لون ساعديّ، الأصفر بشراهة.. كان كلّ شيءٍ بلا معنى. رميت بجسدي - دفعة واحدة - على الأريكة، تمددت فوق الملابس الباردة، أتنشق رائحة مساحيق الغسيل وأغمض..

أين أسامة الآن؟

إنه - في أحسنِ حالاته - إذا أراد أن يكون ذا فائدة، فإنه يكفّ عن التواجد، يتركُ المكان يئنّ تحت قسرية التداخلُ الهمجيّ بين مفرداته، بين رقائق البطاطا وعلب البسكويت وتلال الأقراص المضغوطة و.. الرائحة، رائحة السردين من أين تجيء؟

.. أنا وحدي، وحدي تماماً، لا أحد يستطيع تغيير حقيقةٍ كهذه، وحدي.. مثل خديج عثر عليه في صرّة ملابس، خديج نسيت اللقائق أن تأخذه إلى أم، أو لم ترغب بذلك أصلاً، وحدي، وسط كومة ملابس، ملابس في كلّ مكان، من فوقي ومن تحتي، وعن يميني وعن شمالي.. كم سيستغرقني الأمر لكي ألملم ملامح المكان، وأعيد له وجهه؟

اللقالق لن تمرّ من هنا

.. فقد كبرتُ.

أغطي عينيّ بساعدي، ينبغي أن تكفّ الألوان عن الحضور، والروائح المشبوهة لمساحيق الغسيل الحزينة وعلب السردين ورائحة الخلّ والملح والبطاطا وكأن كلّ شيء يتحرّك في هذا العالم إلا أنا!

ربما ينبغي أن يكفّ العالم عن الحضور، ينبغي أن تضمر ملامح الأشياء، كل هذه الألوان والروائح والمهام التي ينبغي فعلها.. ليتها تنقرض، تنقرض لبعض الوقت، رفقاً بي وبكل العاجزين عن المواكبة، عن الاتساق، العاجزين عن تبرير وجودهم على أدمة العالم

مثل بثرةٍ متقيّحة، قليلٌ من الانقراض النبيل، وكثيرٌ من البياض، السطور الفارغة، الإنصات و..

هناك أستطيع أن أفكّر أقل، أغمض أكثر، وأتركُ العـــالم يرحـــلُ بدوني.

2

"أسّوم"..

يناديني "أسّوم" لأنني "أسماء"، وأناديه "أسّوم" لأنه "أسامة"، ونحن - كما يقال - توأم: لا نتشابه، هو - مثلاً - يحب اسمه، وأنا أرى بأنه من قبيل التعسف، والظلم، أن يكون اسمي "أسماء"، هكذا فقط: أسماء! ولا أستطيع أن أبرر - على أي صعيد - هذا الإرهاب الذي نقترفه بشكلٍ عشوائي، عندما نسمي الأشياء، ونضيف - بمزاجنا الخاص - كلمة "بأسمائها"، عندما نجرها كالأكباشِ المرعوبةِ، خارج الهيولى، لتحضر في التجربة، وما بعدها، ونزجها في التفرقة الكونيّة، لتخضع للناموس، وتمثل للقسطاس، فتروج كلمات متألّهة، كلمات مغرورة ومتعالية، كلمات مثل (أفضل/ أسوأ)، (أجمل/ أقبح)..

لا تعرفُ الأشياء لماذا هي أقل أو أكثر، لا تعرف ذلك إلا إذا سمّيناها، الأشياء تبقى سعيدة ما لم نخرجها من هيولى الحياد، ونقذف بها في جحيم الانحياز، حيث لا تعودُ الأرض مسطحة، ولا الأشياء صديقة الأشياء، وتتراتب ملامح الكونِ في طبقية سافرة..

إننا نسقطُ عدواننا على الأشياء، نجعلها - هي الأخرى - مكرهة على التواجد، على حمل رسالةٍ أبتها السماء، والأرض، وحملها الإنسان، إنه كان..

ربما نحاولُ أن نعبّر عن رعبنا؟

هل الأسماء إرادة متجلية

أم مجرد هرطقة؟

الأكيد، أن لا أحد يريدُ اسماً بهذه المياعة وهذه الحتمية، اسمٌ يتأرجحُ بين هاجس الظهور وجنة الغياب، اسمٍ متردّد، مشاع، يمكنُ أن يكون أي شيء بطول المسافة الفاصلة بين الوردة والجيفة، بين اللقلق والتابوت، بين الأمير والضفدع، بين الأغنية والدمعة، يمكنني أن أكون كل شيء، بل أنا في الحقيقة كلّ شيء، ولفرطِ اتساعي وقدرتي على مزاحمة أي اسمٍ على إسمه فأنا ما أزال، أمامي، غير مرئية، غير معروفة، مثل كتلة مائعة من الهلام..

.. عندما تكدّسنا، أنا وشقيقي، في بطنٍ واحد، أرادوا لنا اسمين متقاربين لأن موضة التوائم تقتضي ذلك، لأننا سنعرض - لاحقاً - على العالم بصفتنا مفردتين في عبارةٍ واحدة، فنجانين من طقمٍ واحد، بصفتنا معجزة التشابه والاختلاف، والتجلي الأليف لقدرة الخالق، وخصوبة الطبيعة، لأننا نذكرهم بالآياتِ الداعية إلى التدبّر، وبالبرامج العلمية على قناة "ديسكوفري"، لأننا - ببساطة شديدة - موضوع حسن السّمعة!

كانت أمي في شهرها السادس عندما عرفت بأن في بطنها توأم، وقد فوجئت بالخبر يجيء متأخراً لأنني كنتُ - حسب ما قالت - مختبئة خلفه، لم ينتبه لي أحد، لم أنتبه لأحد، لم يرغب بي أو أرغب بأحد، كنتُ خلفه، وعرفوا بأمري لأن قدماً ثالثة ظهرت على شاشة "السونار"، منذها.. وهما يبحثانِ عن اسمين متشابهين، ولكن ما حدث، بعد أن مددوني إلى جانبه في جناح المواليد، هو أنهما عرفا - بما يكفي من الرّعب - كم نحن.. لا نتشابه، كان كل ما فيه ينبىء بإمكانيةٍ فارهة للوسامة، وكلّ ما فيّ يشي بالنقيض، كنتُ زرقاء، مشعرة، بعينين جاحظتين وذقنٍ مدقوقة..

وهكذا، سيداتي سادتي! كان هو أسامة المصور، وكنتُ أنا الشيء الذي هو - لفرط دمامته - تصعب تسميته، كنتُ "أسماء".

- أسّوم؟!

- هاااااااااه..

- قوميْ!

كان متربعاً، فوق البطانية الزرقاء البغيضة، يلعب *البلي ستيشن*، يمضغ بسكويتة، هل غفوتُ؟ أتساءلُ و..

- أسّووووم!

- شنو؟!

- يوعاااان!

- أسامة ترى مالي خلق..

خدي الأيمن متعرّق، عليه آثار مطبوعة لكومة الملابس التي تمددت عليها، يحكي/ أدعكه..

- قوميْ، ليش نايمة ع الهدوم؟

أدعكُ عينيّ:

- .. ريحتها حـــ.. لوة!

يضحك، السيارة في الشاشة تنحرف عن الشارع، تحمرّ أذناه: "يا حمااااااار لاااا!"، من تراه يشتم؟ يرمي بعصا التحكم من يده، يضربُ اللعبة بقبضته، تهتزّ الشاشة على التلفزيون، يعيد الكرة "غبـــي!"..

أيّنا؟

ثقيلة مثل كيسٍ من الملح، عوالمي تتساقط، أنا يقظة - الآن - وهذا ليس جيداً، أفركُ وجهي، أقرفص فوق الثياب، برأسٍ متدلية، مثل جوربٍ على حبل غسيلْ.

- رحتي حق أبلة حصة؟
- ايه.
- شقالت؟
- قالت لأ..
- أفا!
- بروح لها مرة ثانية.

وأتثاءب..

- خلك منها "أسّوم".. أنا كلي لك!
- شبـــي فيك؟
- والله أنا شخصية عظيمة.
- شفيك زود بالله؟
- خفيف دم، وسيم، وقلبـــي طيّب..
- وتقدّر الحياة الزوجية؟!

يضحك/ أتثاءب/ أسأله، ينظر إلى ساعته "الكاسيو" المشدودة إلى معصمه الأيسر، يخبرني:

- الساعة أربع العصرْ.
- والله؟
- طبعاً ما سويتي غدا؟
- نطلب بيتزا.

.. وأنهض، ركبـــي متيبّسة، أسمع طقطقـــات عظـــامي فيمـــا أنتصبُ، أنتصبُ بقدر ما تستطيعه الروح المأزومة في الجسد المـــأزوم، ألقي نظرة على المكان من حولي، أتفقد الوجه الذي أعرف وأرهـــب، إنه هو، وكما يبدو دائماً، المكان المفضل للأشـــياء عديمـــة القيمـــة، والروائح الغريبة، والأفكار الشاذة، والوحدة، إنه المكان "الآخـــر"، أو

هو - ببساطة - *المكان*، حيثُ يتكثف الزمنُ ويكفّ عن المضيّ وتُتْرَك الأرواح معلّقة على المشاجبِ لتهترئ، ورغم كل ما تحاول الفوضى أن تشي به من حياة، إلا أنها لم تزد المكانِ إلا موتاً..

الفوضى فضيحة المكان، الفوضى تقول أشياء لا يجدر بها قولها، أشياء يتغاضى الناس عن قولها في سبيل أن يكونوا لطفاء، مثل أنني أغدو في كلّ يومٍ أكثر تآكلاً، مثل أن المكان مفرّغ من الرغبة، أي ذرة من الرغبة بأي شيء، أي شيءٍ من شأنه أن يجعل مسألة تنظيف الأرض وغسل الصحون أكثر منطقية، الفوضى هنا تقول بأن الحياة عديمة المعنى، والطعم، والرائحة.. الفوضى هنا تقول بأنني غير سعيدة.

3

عندما أغسل وجهي لا أنظر في المرآة، أعرفُ.. كم أنا صفراء!

أتركه/رأسي متدلياً أسفل الصنبور، أدعكه و..

شيءٌ ما ينبغي أن يتغيّر في حياتي، شيءٌ ما.. ذقني مثلاً.. أو..

- شتسوين؟

إنه يتبعني، يتبعني مثل طفلي!

- يا أخي ما في شوية خصوصية هالبيت؟
- أسّوم خليني أغسل لك شعرك!

.. ويحبني مثل أمّي!

- تعال..

لماذا هو سعيدٌ دائماً؟ سعيد لدرجة الإزعاج! حتى الطريقة التي يمسك بها بعلبة الشامبو، يضغطها، الطريقة التي يتأمل بها السائل الشاحب الكثيف يتجمّعُ في راحتيه، الطريقة التي يدعك بها شعري، الطريقة التي.. تفوحُ بفرحٍ غريب، غير مبرر، فرح شاذ، *وكأنه كفّ منذ مدة عن أن يكون بشراً!*

- أسوّم شعرك طال.
- بقصّه.
- لا.. لا خلّيه، حلو!
- مالي خلق أمشطه.
- خليه، أنا أمشطه بس خلّيه.

.. ورغم أننا بالكاد نفترق، إلا أنه غالباً ما يبحث عن أي فرصة، أي احتمالٍ لفرصة، أي بذرة لفرصة، أي شبح لفرصة، لنتواجد معـــاً، وكأننا لا نفعل ذلك طوال الوقت، وكأنه لم يسأم وجهي أبداً، وكأني لم أكره وجهي قط.

.. يقول بأننا لفرط ما نتقابل لم نعد نلحظ بعضنا، يقول بأننا لم نعد نحسّ بنا أحياء، وأتثاءبُ.. لأنني أتحوّل في كـــل لحظـــةٍ إلى شيء، أطرافي تصدأ، عظامي تتصلّب، ملمس جلدي يشبه ملمـــس سلحفاة، ولأنني لا أحب أن أمشط شعري فأنا أقصه كلما لامـــس أذنيّ، إنني *أنسمخُ*، وينبغي أن يتغيّر شيءٌ في حياتي.. ذقني مـــثلاً، أو..

لو كان لي اسم جميل/ وجهٌ جميل..

- أسامة إنت شسالفتك اليوم؟
- حطيني مكان أبله حصة.
- أسّوم قفّل الموضوع وإنساه خلاص.

يلف شعري بالمنشفة، يلفه بسهولة وكأنه يفعل ذلـــك طـــوال الوقت، أنا أمام المرآة.. وأكرهني، الأعين الجاحظة، أكرهني! ويبـــدو هو - إلى جانبـــي - فارعاً مثل نخلة، وأكثرْ، لاسيما مـــع انعكـــاس الضوء الباهت على عينيه واشيا بالخضرة الحية الحيية، إنه لا يتألق بقدر ما يتألق لحظة يقفُ إلى جانبـــي، وكأنني لا أنفع في هذه اللوحـــة إلا لأشير إلى بهاءه من خلال دمامتي، من خلال محدوديتي، هذا الشـــقيق النقيض.. هذا الـــ..

أيّنا ينقضُ أيّنا؟

- وإذا ما وافقَت..؟
- أفكّر!

كان عليّ أن أمنحه أملاً كي يصمت، أريد أن يصمت، وهذا الفرح المشبوه الذي يحيط به على الدوام، الفرح البغيض، الفرح البذيء، الفرح القذر! ينبغي أن يتوقف كل شيء الآن، على الأقل ريثما ألتقط أنفاسي فيما هو يرتع ويلعب ويبحث عن طريق جديد للذة، وكأنه لم يخرج من ذات البطن الذي خرجت منه أنا، وينتمي إلى ذاتِ الكيمياء والآباء والمكان والوقت والجينات والغثاء.. وكأنه كذبةٌ أو ما شابه، أريدُ لكل شيءٍ فيه أن يصمت، أن ينتهي ويتقوّض ويتوقف عن تحويل حياتي - بسعادته الوقحة - إلى جحيمٍ غير مبرّر.

- يا حبي لك أسومة!

جحيمٌ غير مبرر!

.. لفرط ما هو مكتمل، لفرط ما يجسد - بعفوية - النقيض التام مني: حاجبٌ أزجّ، وبشرة دسمة بيضاء، وقامة شامخة.. دائماً ما يرتدي بنطلون جينز وبلوزة زرقاء، يفعل بعفوية كل الأشياء التي تفاقم سماويّته، وتضاعف انحطاطي، لاسيما وأن ملابسي تستبسل في الإخلاص للرماديّ بكل درجاته، إنه - ببساطة - ضدّي، ضدي المسالم الذي يمثل كل ما أريد أن أكونه و لم أكنه، وكأننا عندما تكدّسنا - أنا وهو - في بطنٍ واحد، نال هو كل الحظ الذي خُصّص لنا، وترك لي خيارات محدودة جداً، لأجيء أنا، كما أنا، مجرد أنا.. فتاةٌ بلا امتيازات، وبذقنٍ مدقوقة.

4

تقول أبله حصة: الأسماء قدر، الأسماء تختارنا، تقول - وحدها - بأن اسمي جميل، لأنه على حد تعبيرها الفريد "أكثر من حضور، أكثر من ظهور" وبأنني - بفضل اسمي - أستطيع أن أكون أي شيء، تقول بأن اسمي هو عنوان الاختيار، عنوان الحرّية، لا يحدّه إلا الصّمت، وأنا.. أهبها عينيّ وأذنيّ وصمتي، لأنها تقول الأشياء التي لا يقولها الناس، تقول الأشياء التي نسيناها.

.. و"الكتب قدر!"

تقولُ، الكتب التي قرأناها اختارتنا، اصطفتنا! تهمس: هل سبق وأردت قراءة كتاب وعجزتِ عن ذلك؟ إنه/ الكتاب لن يهبك روحه ببساطة، لأنه يريدك أن تحبيه كفاية، وعندما يتحقق ذلك سيدلق روحه فيكِ ويمتزج بكيانكِ وهو يعرف بأن فناءه لن يكون سدى، لأن فناءه وجوده، وجوده فناؤه، وهذا هو.. جوهر الحبّ وأقصاه، إنه المعنى المنسيّ للشهادة.

تهمس: هل سبق وأمسكت بكتاب ثم رميته؟ الأمر يشبه ما تشعرين به عندما تلتقين إنساناً للمرة الأولى ولا يعجبك، الأرواح جنودٌ مجندة، والكتبُ أرواح، والموتى ليسوا أقلّ منا حضوراً، هل تشكين؟ نحن - دون أن ندري - نتخاطر مع الأشياء، نتفاهم معها بلغةٍ نظنّ بأننا لا نجيدها، ولكن الحقيقة أن الكون كله.. كله! يتحدث هذه اللغة، الشيء الذي يربطنا بالأشباح والنمل والجوارب والملاعق

وكل شيء في العالم، هو هذه اللغة.. السهلة كالماء، الكونية كالموسيقى.

أبله حصة تخلقُ من الأشياء العادية، المملة، الرتيبة، عالماً أسطورياً، إنها مثل عرّافةٍ طيّبة، تظهر للفتيات الحزينات، مثلها ربما، مثلي بالتأكيد، وتجعلنا نظنّ الأمر مختلفاً، عندما أراها في أحلامي، أراها حسناء، تحمل عصا جنيةٍ، وأخبرها بأنني أملكُ فستاناً جميلاً وعربة لائقة وزوجة أب، بل ثلاث زوجات أب، ولكنني - أنا نفسي - لستُ جميلة، ساعديني.. أيتها الجنية الطيّبة، حوّليني إلى فتاة الرماد، إلى سندريلا، خذي سيارتي، وفساتيني، واجعليني فتاة الرماد تلك، فتبتسمُ، تضع يدها على خدّي وتقول "كم أنتِ سندريلا"!

أبله حصة ساحرة، تخبئ عصاها في المقلمة، أو في حقيبتها الجلدية البنية، أنا متأكدة بأن هناك.. عصا، لأنها تلاحظ أشياء لا نراها لفرط ما هي أمامنا، الكتب، النخيلُ، والملابس، كل الأشياء الجميلة تحب أبلة حصة، وهي تتمادى أحياناً وتقول، كل الأشياء جميلة، وأتمنى أن أسألها: حتى الجثث؟!

بشرتها متوردة بإفراط، رقيقة بإفراط، عيناها لوزيّتان ناعمتان، مكللتان برموشٍ باذخة، وابتسامة قادرة على تجميد الزمن، خاصة عندما يغمرها الافتتان، وهي تشرح علاقاتها بالأشياء الغائبة، تجسر وتقول "حتى وجوهنا اختارتنا!"

.. الكأس في يدي يرتجف..

تقول.. وجوهنا ليست اعتباطية، إنها ظهور الباطن الملتبس منا، إنها تجلٍ لإرادة الحياة، إنها شُفرة الفرادة الحقة، إنها عناوين تحطّ عليها زواجل الرّوح، إنها رسائل نأخذها من قلوبنا إلى العالم و..

.. الكأس يسقط، يتحطم..

تبتسم: لا عليكِ..
إنها جميلة، يحق لها أن تدّعي شيئاً كهذا.

5

قالت "أخشى آنكِ التالية" وخبأت دموعها في صرّتها البيضاء، وهي تمشّطُ شعري.. شعري الطويل بلونِ الزّيتِ، تعطره بالخزامى وزهور البرتقال، قالت أمي بأن زهرة البرتقال تهبُ الشعر نضارته، وقالت بأنني جميلة، وقالت أيضاً "أخشى آنكِ التالية" ..

بعد أن مشطتني امسكت بيدي بقوّة لدرجة أن أصابعي تعرّقت، خرجنا نمشي، كان الناس يمشون بين حقولِ الذرة، إذ الأرض ترسل شعرها الذهبي للسماء، الأرض تخبر السماء بأنها ما زالت جميلة.

بعضهم يبسبسُ ويهمسُ بأشياء غريبة، نظرتُ إلى أمي وكانت مثلهم، تصلّي، نظرت إليّ وقالت "الأحسن أن تبقي في الصفوف الخلفية"، ولمحتُ عدداً من الفتياتِ يركضن، فتخلصت من يدها وركضتُ معهن..

امتثلت للرّكض، ركضت.

انتهينا إلى زحام، نفذنا بين السيقان المنفرجة إلى صفوفٍ متقدّمة، سألتُ الفتاة "عن ماذا نبحث؟" قالت "عن الجميلة"، تسللنا بين أقدامِ رجلٍ إلى الصف الأمامي ورأيناها، تزيّنُ رأسها بتاجٍ من الزهور البرية البيضاء، ترتدي ثوباً أخضر بأكمامٍ طويلة يبدو أكبر منها عشرات المرّات، وقد جلستْ تأكلُ العنب والتفاح وتشربُ الماء، سألتُ رفيقتي "ماذا سيحدث؟" فهزت كتفيها وراحت تنظر إلى الفتاة والرجال الواقفين عن يمينها ويسارها، كانت شفاههم تتحرّكُ، كانت شفة

رفيقتي تتحرك، شفاه الجميع تتحرّك.. باستثناء شفتيّ.

قالت الفتاة "إنها أجمل فتاة في القرية"، اقترحتُ أن نقترب لنرى إن كان ذلك صحيحاً أم لا، اقتربنا بضع خطوات والتقت عيني الفتاة الجميلة بعينيّ، تجمّدتُ واقفة، وسطِ الفراغ الذي يلفه الزحام.. كان شعرها ذهبياً كالذرة، وعيناها صفراوان كالعسل، وبشرتها حنطية كالأرض، نظرتْ إليّ وابتسمت وهي تحرّك أصابعها بتلويحة سرّية، فلوّحتُ لها..

شعرت بيدِ تجذبني إلى الخلف والتفتُ، كانت أمّي تبكي: "كلهم رأوكِ"..

صفعتني فاستيقظت.

6

.. صفعتها لاسعة، حبيبة، ما تزالْ.

أدعكُ خدّي، أعتدلُ جالسة، عيني على غطاء السرير المشجّر، لا أريدُ أن أنظر أمامي، أمامي وجهي/ المرآة.

كانت أمي تمشطُ شعري، كانت أمي تصفعني، كانت أمي مـــا تزال قريبة ودافئة و.. ليتها بقيت، ليتني بقيتُ، هناك، المكان، الأزهار، الوجوه، كل شيء حقيقي، هناك، العالم ليس مجرد كابوس، العالم أكثر من مجرد أضغاث أحلام متكدّسة في رؤوسنا.

.. "حياتي الثانية"

تجيئني وافرة التفاصيل، فاتنة التفاصيل، أكثر محسوســـية مـــن أيّ شيء، إنها.. واقع آخر، مكان آخر، حياةٌ تتحرك في زمنٍ أكثر سيولة وتحرراً.. زمن غير مجمد ولا صدئ، حيثُ كل شيء هو أصـــل ذاتـــه وحيث الأشياء تخلّقت لتوّها والأسماء لّما تحتجب بالغبار، حيـــثُ أنـــا جميلة، حيثُ شعري زيتٌ وعيني قطرتي عسل، و..

.. لا أريدُ أن أرفع عينيّ، عليّ أن أغيّر مكان المرآة، ليس ثمة أقبح من أن تلتقي هذا الوجه بعد الوجهِ الذي كنته، حيث العالم ليس مجرد حلم، حيث الحياة..

حياةٌ فلكُها .أنا، في جسدٍ آخر واسمٍ آخر، أو ربما بـــلا إســـم، أعرفُ ذلك لأن الحلم لا يتكرر، بل يستكملُ نفسه، وعندما أســـتيقظ فهو لا يتوقف، بل يستمر في الحدوث، وفي المرة القادمة التي أعودُ فيها

إليه لا أبدأ من حيثُ انتهيت، بل من حيثُ بلغَ هو، فهو زمن، وهو يمضي، وفي تسلله من بين الأصابع يغسلنا عنا لكي نعود أكثر أصالة وأطفئ النور، لينطفئ الوجهُ، ليعود وجهي الآخر، لتعود أمي و..

لا يمكن أن يكون هذا مجرد حلم، فإذا كانت الأحلام تصدر من عوالمنا الباطنة، فإنّه لا ينتمي إلى عوالمي الباطنة في شيء، لأنه ببساطة جميل، أجمل من إمكاناتي، لأنه يتكون من مفردات لا علاقة لي بها، يخبرني أشياء لا أعرفها، من أين لي أن أعرف بأن زهرة البرتقال تهب الشعر نضارته؟

عيني تعتادُ الظلمة، أراني.. ما أزالُ!

أغمضُ، أشيحُ، أركضُ في داخلي، أركضُ، أسألُ، أسيلُ.. لماذا وضعت المرآة أمام السرير؟ أي ثقة؟ أي شجاعة؟ أيّ وهم؟

هذا الوجهُ.. أيّ وهم؟!

صوت التلفزيون يتسلّل نحيلاً، مزعجاً، مثل أبر تقحم رؤوسها في رأسي، لابدّ وأنه هناك/ ممددٌ على الأريكة ليحلمُ، يحلمُ بأشياء جميلة ويسميها أضغاث، يحلم بأنه يطير في السماء مع مارلين مونرو مرتدياً لباس السوبرمان، يحلمُ بأنه يفوز في مسابقة تهجي الكلمات، أو يلقي بسنّارته إلى البحر من كوكبِ عطاردْ، أو يتسلّق قمة إيفريست على يديه، أو يحلمُ – الوغدُ – بأمّي تزرر له ياقته، يحلمُ بأنه يرقص حول النار مع الهنود الحُمر، أو بأنه يلعب الشطرنج مع دانزل واشنطن، أو.. يحلمُ بكل إمكاناته! بكلّ الأشياء غير المستحيلة بالنسبة لمن هو مثله، لأن عالمه أكثر سعة، وأكثر تفتحاً، ولأنه – ببساطة – أجمل، ولكن أنا.. أنا..

في هذا المعراج النازح صوب زمنٍ أكثر أصالة، شيءٌ آلفه وما فتئ يحدث وكأنه كان يحدث دائماً، شيءٌ يستحق أن أدافع عن

وجوده، أن أجادل بشأنه على الأقل، الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أبرهن به على أنني لستُ مفلسة تماماً.

.. لو كان حلماً عادياً لرأيت أشخاصاً من محيطي المجاور، ولكن عندما أكونُ هناك فكل الوجوه جديدة بقدر ما هي مألوفة، وأمي هناك لا تشبه أمي هنا إلا في قلبها، وأنا هناك لا أشبهني هنا حتى في قلبي، قلبي هناك أخضر، وهنا أسودْ. بالأمس حلمتُ..

كان ذلك النوع من الأحلام الذي يسميه الناس "مجرد حلم"، رأيتني ممددة على صفيحٍ من القصدير مثل بطة مشوية، وكثيرٌ من الديدان تخرج من جسدي.. رأيتني- ببساطة - أتفسخ، وأعرف بأن الأمر جدّي وحقيقيّ، ولكنه ليس حياتي الأخرى، إنه الآن.. الكابوسُ، الحياةُ هناك، هذه هي الحقيقة، حقيقتي الخاصة غير القابلة للمساءلة.

وجهي، وجهي الوهمُ.. معلق فوق أجفاني، هل أفتح عينيّ؟

كل تجاربي الفاشلة في العودة، في افتعال الصعود، في افتعال السفر.. حاولتُ أن أجبر نفسي على النوم، ابتلعتُ حبوباً منوّمة وتمدّدتُ على سريري وكان المساء، ولكن ما حدث هو أنني وجدتني مربوطة إلى قطعة خشب والنار من حولي، وكنتُ بالشكل الذي لا أحب، بالاسم الذي لا أحبّ، بالقلبِ الذي لا أحب، صفراء مريضة ممرضة بأعينٍ ذابلة وذقن مدقوقة ووجهٍ يشبه خارطة، كانت النار تضحكُ عليّ وأنا أرى البط والدجاج يرقصون ويسخرون مني..

أعرف الآن بأن عليّ أن لا أفتعل الصعود، بأن ما فعلته هو تجاوز وقحٌ على عفوية العالم المحتجب، أعرف بأن علي أن أنتظر أن يأتي العالم إليّ عوضاً عن أن آتيهِ أنا، صرتُ أنامُ ببساطة، في أوقاتٍ غير منتظمة

ومتى ما شعرتُ بالتعب، أترك أزرار ياقتي مفتوحة.. أتأمـــل وجهـــي يتغيّر، يصبحُ رديفاً لرغبتي، أصبح - هناك - أحبّ العالم، والعــالم - هناك - يحبني.

7

الأضواء مطفأة، لأننا نخافُ من فواتير الكهرباء أكثر من الأشباح.

في الشهر الماضي كان عليّ أن أطلب من أبـــي مالاً، هذا الشهر، لا أريدُ أن أفعل شيئاً كهذا.

أعبر الممر الفاصل بين غرفة نومي، وغرفة الجلوس، أرى ظلالاً في الصالة، ليست أشباح، العلم يقول.. ليس ثمة أشباح، أبله حصة تقول: الأمكنة مترعة بكائنات لا نراها، أحلامي تقول: لسنا ســـوى ظـــلال لظلال، والأشياء التي تتحرك هنا هي ظلال الأجساد التي ترقص طوال الوقتِ في "روتانا" و"أل بـــي سي" و"كليب" و"ستار أكاديمي" و..

لو سمعتني أبله حصة لقالت، ظلالنا لا تقلّ عنا حياة.

ماذا لو كانت الظلال هي الحقيقة

أجسادنا هي الصورة؟

أسامة نائم، أنفاسه بطيئة، ولكنه لا يشخر، لأنه يترك فمه نصف مفتوح كما تفعل أمي، شفته العليا مرتفعة قليلاً، تسبغ على محياه لمحـــة من البراءة، وشعره الأسود منسدل بترف على جبينه.. لقد اختـــار - الوغد - أن يكون أمي في كل شيء!

أرفع خصلة الشعر عن جبينه: هل أكرهه؟

يتحرّك، أضطرب

يفتح عينيه، أصرخ!

- شفيك؟!

أبسمل، يبسمل، أبسمل، يبسمل، أبسمل، يبسمل، يضمني إليه:

- بسم الله عليك الرحمن الرحيم.. خرعتك؟

أظنه نفذ إلى رأسي.

أظنني أكرهه.

التُّــراب

"المضيُّ عقوبةٌ/الجذورُ جحيمٌ"

1

عندما نولدُ إناثاً، فنحنُ نولد قضايا، لأن العالم مزوّد بتقنياتٍ جاهزة للحدّ منا، إنني أعتبر فكرة كهذه من قبيل المسلّمات، وفي الوقت نفسه، أظن بأن المرأة التي تترعرع في وطن، أو في منزلٍ، ذكوري، هي امرأة محظوظة، لأن الفرصة متاحة أمامها لتقاتل، إنها تملكُ الكثير من الفرص، لأجل أن تتحول إلى نموذج، فهي كبيرة، لمجرد أنها أنثى، وهي مزودة بقضية جاهزة - بمقاسات ملائمة - لتقاتل من أجلها، لقد وفّرت على نفسها عناء البحث عن معاناة، ومشقة المكابدة لأجل أن تظلّ على قيد الإنسانية، أن لا تتخشب مفاصلها، أو تتحول بشرتها إلى جلد سلحفاة، ووجهها إلى تابوت طفل..

.. المشكلة، مشكلتي، أن الشوارع تجيء مرصوفة، والطرق ممهدة، والحواجز ملغية! المشكلة، أن حياتي مترعة بالإمكانات التي أفتقر إليها أنا ذاتي، أن عندي غرفة خاصة بي، لا أحد يسألني إن تأخرت خارج المنزل، أو يمانع لو شاركتُ في ندوة علمية، ليس عندي أب يغضب لو رأى صورتي في مجلة، أو أخ يجلدني بعقاله لو قررت أن

أصبح مدربة نمور في سيرك، الطرق سالكة، ولكنني في داخلي.. أتقوض.

إن مشكلتي ببساطة هي أنني أنا.

إن الثمن الذي تدفعه الأنثى التي لا تعاني من كونها أنثى هو أن عليها أن تصنع معاناتها الخاصة، مثل أي ذكر! أن تصمم قضيتها بنفسها، وأنا.. أبحثُ عن قضية، ولا أجد شيئاً مميزاً، يعنيني بشكلٍ مباشر، باستثناء أنني صفراء، وقصيرة، وجاحظة العينين، وذقني ضامر وأشبه سمكة، وهذه الشاشة الكريهة تمارسُ كل يوم، عبر روتانا وميلودي وستار أكاديمي، إرهاباً جسدياً عليّ، فأنا لا أستطيع أن أواكب أجساداً كهذه، والأجساد تكبر، تكبر، تكبر..

.. ولحظة أراه، في غمرة فرحه غير المعقول، أفكر.. بأن من العبث أن ألقي بأي شكلٍ من أشكال اللوم على ظروفنا الأسرية لتبرير الشلل/ الفشل والخيبات المتواترة على كتفي كلدغات عقارب، الظروف التي مررنا بها - أسامة وأنا - لم تترك أي تأثير عليه!

إنه يأكل - أياً كان ما يأكله - باستمتاعٍ متناهٍ، وعندما يشتري بوظة، فهو يستغرق ضعف الوقت الذي أستغرقه في تذوقها، يقرأ في الشعر والتصوّف، غرفته حديقة، وملابسه زرقاء على الدوام، إنه يأخذ كل شيءٍ حتى منتهاه، والوجود بالنسبة له، ضربٌ من اللذة، سلسلة لذاتٍ يريدُ أن يجربها، حتى تلك السخيفة، مثل ضغط علبة الشامبو ودعك السائل الأخضر بيده، إنه يريد أن يجرب هذا أيضاً!

إنه لم يترك لي أية فرصة لأشعر بأنني ضحية لأي شيء، وما فتئ يجعل حياتي مستحيلة، وخساراتي غير مبررة، حتى حقائقي

الثابتة، حول أنني صفراء، وجاحظة، شيءٌ غير مبرر، لأنه جاء من نفس البطن وفقس من نفس البيضة، ولكنه وسيمٌ وبهيّ مثل ملكٍ كريم، إنه يخبرني ببساطة بأنه أفضل، بأنه متفوق في الأرض وفي الماء، وربما في السماء!

وكأنه يبقى حياً كي أتذكرني! كي لا تخمد لسعة الأسئلة في كبدي، كيف يمكنُ أن يتواجد شخصان في ذات الظروف، ذات المكان، ذات الزمان، ذات الكيمياء وحتى الجينات و.. كل شيء! كيف يمكن أن يتواجد اثنان في مقامٍ واحد، ويكون أحدهما سعيداً وراضياً، والآخر تعيساً وخائباً؟!

معطيات المعادلة واحدة، المخرجات - على الضفة الأخرى - تنقضُ بعضها بعضاً، والرياضيات، كما يبدو، لا تصلحُ لتفسير كل شيء.

إن حياتي، وأسامة، هي جملة أشياء لا أحب تذكرها ولا التفكير بها.. والأسوأ، من أن تعيش حياة لا تعجبك، أن تكون - بحكم المنطق - *المسئول* الوحيد عن هذه الحياة، أن تفقد حتى القدرة على أن تعيش بصفتك *ضحيّة* للظروف.

لا شيء يبرّر هذا الوجه المتلصق بي كفضيحة..

.. الأسوأ من أن تعيش خائباً، أن تعيش عاجزاً عن تبرير خيبتك، ففي الوضع الطبيعي، يمكن لأيٍ كان أن يبرّر أكثر خساراته فداحة، وأكثر أفكاره وحشية، وبلغة أكاديمية جدلية قديرة: "إنها البيئة، إنها النشأة: عندما تضع خبزة في مكان مظلم ورطب سيأكلها العفن"، وسيكون ذلك كافياً، ليشرع المجتمع في لطم جيده مولولاً، مكفراً عن خطيئته في حقّ "البذرة" سيئة الحظ التي لم تحظ بالماء والنور لتتحول إلى نخلة، ويبدأ الجميع بتحميل أنفسهم مسئولية جميع

جرائم القتل، والاغتصاب، والإرهاب و.. تمتلئ الجرائد بأسئلة موغلة في المازوشية على شاكلة "من المسئول؟" أو "من يمسح دمعة هذا الـ..؟" أو "من وراء تطرّف الشباب؟" وكأن في الأمر مؤامرة مقصودة، يمكنُ للمجتمع أن يتحمّل أي نوعٍ من الخسائر، أي نوعٍ من الأخطاء، أي شيءٍ إلا وجهاً دميمًا لامرأة! حيث يبزغ السؤال النصل: ماذا لو وضعت قطعتي خبز في مكان مظلم ورطب، وتعفنت الأولى وبقيت الثانية صالحة؟

الأمر مخزٍ للخبزةِ المتعفنة، لي أنا.

حسناً، عندي ثلاث زوجات أب لطيفات، وأمّ تعيش خارج البلاد منذ عام، وأب يحدث أن لا أراه إلا مرّة كل شهرْ، يملك عمارة هزيلة في "الجابرية"حيث أسكنُ وأخي، ولكن هل يعني ذلك شيئاً؟ هناك المزيدُ، بالتأكيد، مزيدٌ من التفاصيل مما من شأنه أن يتخم الحكاية، ولكن هل هذا ما حدث فعلاً؟ هل هذا هو ما يهمّ؟

أن لا أحبّ الجابرية، أكره الزحام، أكره أن يكون لي ما يربو عن عشرين من الأشقاء الذين لا أعرفهم ولا أحفظ أسماءهم، أكره أن أمي خارج الكويت، أكره أن أسامة وسيمٌ وسعيد، أكره أن يكون لي ثلاث زوجات أب جئن دفعة واحدة، لأن أبي - قبل سبع سنوات - قرر أنه يريدُ ثلاث نساء أخريات، مرة واحدة، أي هراء مبرر ومشروع، فهل يعني هذا شيئاً؟

كل الأشياء التي حدثت هناك، في الأمكنة الأخرى، البعيدة، الناتئة في الفراغ، كل الأشياء التي تمسرحت في حياتي، هي لا شيء، لأنني في الواقع لا آبه، ورغم أنها ملائمة ورائعة لكي أجعل مني ضحية، شيءٌ من شأنه أن يجعل مروري من هذا العالم بأقل ضرر

وظلّ، إلا أنني لم أعد أستطيع ذلك، وأريدُ أن يتغير شيء في حياتي، لماذا؟

لأن أخي – الوغد – عاش في ذات البيئة و لم يتحول إلى عفـــن أخضر..

بل إلى نخلة فارعة.

2

أعرفُ تقريباً من أين أبدأ.

.. عندي نموذج جاهز وملائم لما ينبغي أن تكون عليه حياة فتاة توشك على السادسة والعشرين وتكره وجهها، أن أكون سعيدة يعني أن أفكّ تلك الشفرة المخبوءة في أكثر أقاليم الله قدسية وسـرّانية، في قلب إنسان، في قلبها..

هي المطلوبة، إنها تساوي - وبكل بساطة - كل ما أرغـب أن أصير إليه، إنها المعادلة الأكثر ضماناً للسعادة بالنسبة لفتاة توشك على السادسة والعشرين وتكره وجهها و..

- ش بتسوين يوم السبت؟
- بروح المدرسة.
- بعد؟!!

كان متربعا علـى الأرض يلعـبُ "play station"، يحـدق في الشاشة بإفراط مستميت فيما أتمدد على الأريكة، ألاحق بياض السقف و..

الآلية؟

كيف تبعثُ الخضرة في خشبة ينخرها السوس؟

- أنا مادري شنو مسوية لك أبله حصة؟ ساحرتك؟

.. لو كنتُ بهذا الذكاء، لو كنتُ بهذه الدرجة من الفتنة أو.. لو كنتُ أبله حصة!

الكيفية هي السؤال..

- من تحبين أكثر أنا ولا أبله حصة؟
- أبله حصة.

وكان قد بدأ يرطن ويبرطم ويثرثر و.. أسمع حروفاً مبعثرة تتعثر بالهواء، حروف تعبئ فضاء الغرفةِ و..

وجهها، أستطيع أن آخذ صورة لها إلى أي طبيب تجميل وأطلب منه أن يحوّلني إلى صورةٍ عنها.. أيهما الطريق إلى الآخر؟

القلب أم الوجه؟

- ما تزوّجت؟
- لأ.
- ليش؟

آه! لأن رجلاً لن يكون كافياً - على الأقل في نظري - من أجلها، عوضاً عن أن يكون العكسُ، كما هو معي، أن أجيء ناقصة أمام أيّ رجل، أيّ رجل، إلا شقيقي!

نعمْ، لابدّ وأن هذا هو السبب، لابدّ وأن لها وجهة نظر مثيرة ومفحمة بصدد الزواج، لابدّ وأنها تلعن الآلية التي تجري وفقها الأمور، وأنها رفضت الكثير من الخطاب، مليون خاطب، مليار خاطب، أكثر! خطّاب وعشاق بعدد أوراق الشجر! لأن الأمر برمّته.. مسألة مبدأ، المبدأ إياه الذي يدفع عني أنا/ المتروكة في الظلمة، أي إحساسٍ بالنّقص، لابدّ وأن..

- من أحلى أمّي ولا أبله حصة؟

أمّي خيبة أخرى، حزنٌ آخر، غربةٌ أخرى.. رغبةٌ عارمة بالرّكض، أمّي - في النهاية - محض متروكة، مثلي، ولكنها/ أبلة حصة - في تفردها وتمردها- منيعة ضد الإيذاء، إنها.. إنها قوية!

- لا يسمعك أبوي تسولفين عنها ترى يروح يخطبها.
- ما راح توافق عليه.
- ليش بالله؟ بشنو هي غير عن حريمه؟
- قلبها..
- ..
- قلبها غيرْ!

قلبها، قلبها اللغز، قلبها السبب، قلبها ماء الوضوء

عنوان الاختلاف/ قلبها..

- شلون؟

سأجد الطريق، سأنفذُ من هذا الوجهِ بعيداً حيث ذاك الوجه، سأخرجُ من أنفي، من فمي، من أذني أو من بؤبؤ عينيّ إلى مكانٍ آخر، دائماً آخر..

الآخر دائماً هو الطريقْ.

3

.. رأيت الأشياء تتفتح على حين غرة، كل الأشياء التي تحمل أسماءً مقولبة، منزّلة.. تتفتح و.. يا للرعب! هل كانت السجادة خضراء طوال الوقت؟ ألم تكن النافذة أصغر؟ هل تتغير الملامحُ؟ هل أبعثُ أم أنطفئ؟

إنها بداية النظر، من هذا الغبش الذي يسيطر على المكان، والضوء الذي يمد ظلاله على الأرض أسفل الستارة الكحلية الداكنة، معلناً بزوغ اليوم، معلناً الآن.

أفركُ عينيّ، أمرقُ إلى الحمّام وأسمعه يدندن، لا أعرفُ هذه الأغنية.. أغسل وجهي، أدفنه في المنشفة البنيّة، كانت لها رائحةٌ ما.. جديدة، هل تكتسي الأشياء بصفاتها فجأة، أم أن حواسي تغادر بلادها الآن فقط؟ أسامة يغني بصوتٍ أعلى، أعبرُ الممر، أطلّ عليه من وراء الباب، أراه..

يمسكُ بأصيص صبارة طويلة تعلوها وردة شوكية حمراء، يقرّب الصبارة/ الميكروفون من فمه إذ هو يغني شيئاً لا أعرفه، ويبدو المشهد لبرهة موغلاً في الغرابة، في هذا المكان المترع بالأخضر/ غرفة أسامة: أبصال التيوليب والأماريليس والياقوتية تزهر على المنضدة، وأعلى مشجب الملابس علّق أصصاً لنباتات آكلة الحشرات، وأسفل النافذة الصغيرة رصّ مجموعة منوعة من الصباريات وقد فتح النافذة لتمتلئ الغرفة برائحة الخارج.. إنه يتصرّف مثل مبعوثٍ سماويّ لنصرة الخضرة،

أو مثل مندوب كوني للدفاع عن الكوكب الوطن، أو ربما مثل تلك الشخصيات الكرتونية التي تجعل الأرض تزهر حيثما تحطّ أقدامها، وغرفته - من هذه المسافة تحديداً - مثل بيت للضوء والزرع، وكأنها المكان الوحيد في العالم الخارج عن تأثير المواسم، فكل الأوقاتِ هنا أوقاتٌ للغرسِ، أوقاتٌ للأخضر، والنباتات التي "يربّيها" حية دائماً، مزهرة دائماً، حتى الزمن يتغاضى عن أسامة في سيره، ولا يعرض عليه إلا الجانب الجميل من وجهه، الوقتُ - في غرفة أسامة - ربيعٌ كله، حتى لو كانت الظهيرة بعد مسافة مترٍ واحدٍ من النافذة إلى الخارج.. فيحٌ من جهنّم.

علاقته بالأخضر تشبه علاقة بحبيب، فهو مستعدّ لمنح أي شيء من أجل نباتاته، ويصمم لأجل ذلك طقوساً خاصة: دائماً ما يشغل محطة الـ FM قبل أن يغادر المنزل، يقولُ بأن نباتاته تحبها، يقولُ بأن الغناء يساعد الزرع على مقاومة الوحدة، وبأنه يضاعف اخضراره ويجعله يزهر بصورةٍ أسرع، وقبل أن يغادر الغرفة، كلّ يوم، يمسح بيده على معظم ما يستطيع لمسه من النباتات ليودّعها، لـ "ينقل إليها حبه" على حدّ زعمه، يقول بأنها تستاء إذا غادر دون تحيتها، وبأنها تجيئه في أحلامه وتعاتبه عن كلّ مرة نسي فيها مصافحتها.

يطلق على كل نبتة إسماً خاصاً، لا يستخدم في الغالب أسماءها حسب التصنيف العلميّ، يقولُ بأنها تسمية قاتلة للخصوصية، تعرّف بجنسها لا بـ "شخصيتها" المتفرّدة، رغم كل ما توحي به كلمة "شخصية" هنا من التمادي، وهكذا كانت الغرفة مليئة بالرّبات السومريات والبابليات واليونانيات، كانت في الغرفة إنانا وننخورساغ وعشتار وأرشكيغال وأثينا وبيرسفوني وأفروديت.. يسمي النبات

تسمية الأنثى، حتى تلك الخنثى، ثنائية الجنس، ينحازُ في تسميتها إلى الأنثى، يدللها على هذا الأساس، ويقول بأنها تحبّه.

في ميلادنا الخامسِ والعشرين، أهداني أصيصاً لبصيلة نتأت منها ساقٌ هزيلة، قال بأنني لو اهتممت بها كما يجب ستتحوّل إلى زهرة tulip حمراء جميلة، وقال بأن التيوليب هي رمز الفرادة وقال شيئاً غريباً.. قال بأنها تذكّره بي!

فعلتُ كل ما أوصاني به، سقيتها مرّتين في الأسبوع، في كلّ مرة ربع لترٍ من الماء، وتركتُ الأضواء مضاءة في غرفتي طوال النهار لأجل أن لا تشحب في الظلمة الغزيرة للمكان، ولكنها لم تزهر، لم تكبر، لم تمتثل للحياة، بل على العكس، شاخت في طفولتها، فطست حتى قبل أن تكون لها جثة، لم يعد في الأصيص إلا بُصيْلة عقيم، عندما أخبرته بالأمر قال بأنني لم أرغب بها، قال بأنني لم أحبّها، قال بأنني السّبب، قال أشياء لا تصدّق، مثل أنه يعرفُ بأنني لم أبادلها التحية قط، و لم أداعب رأسها برأس إصبعي و..

رميتُ الأصيص في وجهه ولعنته..

- أسومة إنتي هنيه؟

يفطنُ إليّ الآن فقط، ويرسلُ سؤاله في نغمة موسيقية صباحية، ولكن لماذا أنا في غرفته؟

- حسيت بشي غريب لما نشفت ويهك بالفوطة؟

- صباح النور يا حلوة.

ويمطّ شفته يساراً، غير معجب بالبداية التي صنعتها ليومٍ جديد.

- ما حسيت بشي؟

- مثل شنو؟

- ريحتها..

- أنا حاط فيها زيت لافندر lavender[1]

- شنو؟

- يرخي الأعصاب..

لافندر؟ في الصباح؟ وغناء؟

يمسح بيده على حديقته الداخلية، يلوّح، يكرر "مع السلامة!" أكثر من مرة، يشغل الراديو و.. يقبّل رأسي وينصرف، ينصرف ببساطة، أتساءلُ كيف يسعه أن يغيب فجأة، أن يمشي دون أن يحدث صوتاً.

---

(1) زيت زهرة الخزامي.

4

أستحثُ خطاي، أعبر الممرّ الضيق على حاشية ساحة العلـــم، غرفة المدرّسات على بعد دقيقة ونصف، أعرفُ ذلك، أجيء هنــا كثيراً، وأعرف المكان عن ظهر قلب، أعرف بأن أســفل العمــود الأبيض الثالث طابوقة مكسورة وفُتاة قرميد، أعرفُ بأن في الباحةِ الجانبية ثلاث نخلاتٍ عجاف، بأن ثمة حظيرة دجــاج وأرانـــب في الجانب الخلفيّ من مبنى الإدارة، بأن سيارة أبلة حصة باسات سماوية موديل 2001، أعرفُ كل شيءٍ هنا دون أن أنظر، ولا أنظرُ.. العلم ذابلٌ مثل جفن عجوز، ولا أنظر، الهواء لا يتحرك، لا أنظر، رحــل الطوز مع آخر أنفاس تموز، لا.. أعبر بخطىً آلية، لا أرى شيئاً، لكي لا يراني أي شيء.

هذا الباب، الرمادي، حيث يتقشر الطلاء، هذا هو..

- أسماء؟!

لم أطرق الباب، إنها تحدُس بـــي! العرّافة، القدّيسة! الـــ..

مكتبها يقع في الزاوية القصية من الغرفة، إنهــا لا تطــل علــى الآخرين، ولكنها ترانا كلّنا: بلورة زجاجية أم عصى؟

أدخلُ بآلية كما في كلّ مرة، أجلسُ على المقعد أمامها، لم أكــن متأكدة من كوني أبتسم، ولكنني حاولتُ ذلك.

- شلونك أسّومة؟

- بخير.. شلونك إنتِ أبله حصة؟

- بخير.. هاه، زايرتني؟

أزدردُ ريقي:

- آسفة، ماقصد أزورك من غير موعد بس..

- بس إنتي تمونين!

- عندك شغل؟

- لا ولوو.. ودّي أسمعك، سولفي لي عنّك.

أصمت..

أقحمُ في رئتي كتلة هواءٍ كبيرة.

كيف أبدأ؟

- أبله فكّرتي بالموضوع؟

- طبعاً فكرت.

- وشرايك؟

- لا أسماء، ما ودّي..

- ليش؟

- إنتي قولي لي ليش، ليش تبين تكتبين كتاب..

تصمت، تقذفُ سؤالها الأضخم:

- ليش أنا؟!

السبب الفضيحة؟

لأنني إذا لم أجد شيئاً حقيقياً أفعله سأتحوّل إلى خشبة؟ لأنني أريدُ شيئاً أنغمس فيه حتى أطرافي القصية، وأنسى في خضمّه أنني أنا، صفراء جاحظة بذقنٍ مدقوقة ووجه يشبه صندوقاً مبيّتاً، أريد أن أنسلخ مني، أتحرر مني، أنطلق خارجي في ركضٍ أبديّ صوبَ البياض الفسيح للورقة، أريدُ أن أتوضأ بها لأتطهّر: وجهي الرجس، قلبها الماء، أريدُ أن أذوب في تفاصيلها، أن أكون في قلبها، قلبها الآخر، قلبها المختلف

الذي يعرف أشياء لا يعرفها الناس، ويرى أشياء لا يراها الناس، لأنني.. أريد أن أكون أبلة حصة!

- آآآ..

- بصراحة أسّومة..

- أبله أنا ودّي.. أكتب كتاب عنك، ودّي!

وأبدو ساذجة في تلك الأمنية، ساذجة كطفلةٍ تتمنى ركوب حصان، كم أبدو غير مبررة وغبية، و.. كفوفي تتعرّق، أي سذاجة أفتعلها ستكونُ أفضل من فضيحة على شاكلة: أريدُ أن أكونكِ، وحدها الكتابة تكفل هذا الحلم!

- ليش؟ ليش تبين تكتبين كتاب؟ ليش ما كملتي دراستك؟

السبب/العار: لا أريد أن يراني الناس، لا أريد أن يراني أحد، لا أريد أن أراني أنا، أريدُ أن أغيبَ حتى النهاية وأُترك في النسيان اللطيف، حيثُ يكفّ العالم عن قسوته.. لأنه يكفّ عن أن يكون عالماً قبل أي شيء.. أكمل دراستي؟ ثمّ ماذا؟ أعمل؟ ثمّ أي شيء؟ أخرج إلى الآخرين حاملةً هذا الوجه لأزاحمهم المكان، في سبيل أي فجيعة؟

- أبله أنا ما أحب الدراسة، ما أحب أدرس شي مقرر.. ودّي.. ودّي أتعلم بنفسي! كم أنا دجالة محترفة!

تبتسمُ، يروقها أن تسمعني أردّد الأشياء التي طالما تذمّرت حولها عندما كنتُ طالبة في صفها، وكأنها نسيت بأنها قالت ذلك من قبل، وأنني حفظته، وأنها كانت تمضي وقتاً طويلاً، أطول من وقت شرح المقرر، في نقد المقرر، وطريقة التدريس الفاشلة و..

- وتبين تكتبين كتاب.. عشان تتعلمين؟

- احــ.. إيه!

- طيب مو المفروض إنك تكتبين عن شي تعرفينه؟

- بس أنا ودّي.. أعيش الكتابة.. كـــ.. اكتشاف، مو.. مـــو تقر.. تقرير!

كم هو ملائمٌ هذا الرّد، تبدو مأخوذةً بـــي.. وأغبط، أغبط!

- شنو ودّك تكتشفين أسومة؟
- حياتك..
- حياتي؟
- ودّي أعرف، شلون صرتي جذي.. بس!

أحمرّ بإفراط، أنا على شفةِ عُري.

- جذي.. شلون؟
- جذي و.. بس!

ابتسمنا معاً..

ابتسمنا بنفس التوقيت، بفارق أنها عندما تبتسم، يتوقف الـــزمن، ليتأمّل المشهد، وأنا - لحظة أبتسم - يركضُ الزمن، ليشيحَ بوجهه في آخر الزقاق، ولكننا على أي حالٍ ابتسمنا معاً، ألن يكون ذلك بدايـــة مرضية؟

كنتُ أكثر من راضية.

5

رأيتُ، في تمامِ يقظتي، أن عليّ أن أبذر الأرض، وأن أرض وطني ليست خضراء كما يجب، وتساءلتُ - في أطراف يقظتي - من أبعد السماء عن الأرض؟ ولّما خيّل إليّ بحدسي أني بتّ قريبة، أطفأت محرّك السيارة وأنا أتساءل إن كنت أذكر شيئاً من الطريقِ الذي مررتُ به، فكّرتُ للحظة: ليس الطريق مهماً.. ولّما سمعتُ صوتَ مزمار سيّارة وفهمتُ أن الإشارة أمامي خضراء وأنني ضيعتُ المنعطف إلى بيتي، عرفتُ بأن الطريق هو كلّ ما يهم.

6

عاد أسامة إلى البيت في تمام الثانية بعد الظهر، بينما كنتُ أضع صفحة من ورق القصدير على موقد الطبخ، كانت رائحة المكان قد تغيّرت، وقد ظهر ذلك على ملامحه.

- شنو هالريحة؟
- صابون، يعني ما تعرف هالريحة؟!
- لاه؟ نظفتِي؟ ليش ما نطرتيني.. ودي أساعدك!
- طلّع الزبالة برّا..

يدلفُ المطبخ، يقبّل رأسي، يمسك بذراعيّ ويبتسم:

- يا حلوك أسومة، والله إنك السنع كله! يا بخت إلي بياخذك..

أخبئ وجهي، أخبئه.. لن "يأخذني" أحدٌ من هنا، كلانا يعرفُ ذلك، يعرفُ بأنني باقية، بأن هذا هو رعبي الأليف الذي أحتسي معه فنجان الشاي كل صباح، وأثرثر معه عن آخر التطوّرات في وجهي: تجاعيدٌ خفيفة تحت العينين وسبع شعرات بيض أحفظُ أماكنها غيباً. تهترئ المرأة بسرعة وهي وحيدة، هكذا يلقنني الرّعب، رعبي اليوميّ الأليف الذي أحتسي معه فنجان الشاي كلّ صباح و.. لن "يأخذني" أحد يا أسامة!

- راح أحقد عليه، يمكن أذبحه!

أكره ما يقول.. أكره ما يقول!

.. ولا أذكُرُ أن أحداً نظر في وجهي، لا أذكر حتى أن أحداً سأل

أو طرق بابـــي منذ خمس سنوات، لا أذكّر شيئاً، مهما كان هامشياً، من شأنه أن يجلي عني هذا الـــ.. هذا الوجه، أو يغيّر مـــن فجائعيـــة المشهد..

حسب ما تقتضي البساطة، وحسب ما يقتضي الرعب، وحسب ما تقتضي الموضوعية: أنا - بكل الشواهد المحيطة - امرأة مرمية في قعرِ العالم، في الصمتِ الكبير، في النسيان، في ستة وعشـــرين عامـــاً مـــن التجاهل/ تجاهل فسيح وشامل لكل تفاصيلي.. لولا أنه يحـــبّ لعبـــة التذكر، يحبّ لعبة الانتباه، يحبّ أن يحشرني في الزوايا الضـــيقة ليعيـــد ترتيل حقائقي، ينصبني - مرةً أخرى - في المقام الصـــحيح، اسمـــي، وجهي، قلبـــي، كل شيء، كل شيء، و..

في المرة اليتيمة التي جاء فيها "طالب القرب"، قبل خمس سنوات، وأنا لّما أبلغ عامي الواحد والعشرين، كانت أمّي تجرّني خلفها في المحال تبحثُ عن فستان، عن قلادة، عن حجابٍ مشجّر بالأزرق والفوشيا، عن تفاصيل من شأنها أن تتخم الموقف بالهراء، يوم جاء الرجل، الرجل الوحيد الذي جاء، وجلسَ قبالتي، يوم لم ينظر إليّ إلا مرّة واحدة، يومَ خرج ولم يعقب، لم يتّصل، لم يرجع أبداً، يوم شعرتُ بأنني مزهريـــة قبيحة، يوم..

كلانا يعرفُ بأن أحداً لن "يأخذني" من هنا، إنني هذا المكان ولا أوجد إلا عبره.

يزيح بصره باتجاه الموقد، لا قدور، لا شيء، لا رائحة طعام.

يسألني، محاولاً قدر الإمكان أن يظهر أريحيته:

- ما سويتِ غدا؟

- ما مداني، المكان يبيله تنظيف.

- بس..

- نطلب من مطعم.

يتلكأ..

- أنا أقول مو لازم نتغدا ألحين، ننطر شوي لما ترتاحين.. وبعدين نسوي الغدا مع بعض، شرايك؟ مشتهي "مقلوبة دجاج" من ايدك!

- لا ليش ننطر؟ أنا يوعانة!

يبدو متورّطاً، يحمرّ، تحمرّ أذناه، يبتسم، تنتأ غمازتاه، أسأله:

- شالسالفة؟

- أسومة ما عندي فلوس.

ويخيّل إلي في لحظة أنه سيبكي، يبدأ بالتبرير على الفور، يده تتحرك بانفعال:

- تدرين كم صرفنا الشهر إلي فات؟ كل مرة نطلب مطعم ندفع خمس دنانير، ع الغدا والعشا.. حوالي 250 دينار، غير البانزين وأغراض "الجمعية"..

.. وأغطس في قاعٍ سحيق، قلبي يغوص في منقبضاً، أسند رأسي إلى ساعدي ورائحة الصابون والقصدير تملأ منخريّ، أزفر:

- أبوي ما عطاك شي هالشهر؟

- لا.

- طيب روح إطلب منه..

- أي شي؟!

- روح اطلب منه، احنا عياله وهو ملزوم فينا.

أوليه ظهري، أتناول قدراً نظيفة وأعيد غسلها، لا أريدُ أن أسمع محاضرة أخرى عن اتكائنا المشين على أبي في الإنفاق رغم ديونه والتزامه مع ثلاث أسر لم نعد من ضمنها و..

- احنا كبرنا أسومة.. عمرنا ستة وعشرين عقب.. عقب ست أيام؟
- سبعة..
- لا ستة.
- ويعني؟! أنا ما أشتغل و.. لازم أبوي يمشي لي معاش، أصلا شلون راح أطبع كتابـــي من غير فلوس؟

بدأ صوتي يرتجفُ في المنعطف الأخير من كلمـــة "كتابـــــي"، وبدأت أنشج فجأة، بشكلٍ غريب وغير مبرر، ورحت أمسح دموعي بطرف كمّي وأتنفس بثقل.. كان هناك جبلٌ ثقيل فوق صدري، كان هناك صدرٌ فوق صدري!

- حبيبتي أسماء، حبيبتي إنتي.. لا تبكين، ماكو شي يسوى..

وأبكي..

- يخني يلعن أبو الفلوس..

وأبكي..

- خلاص.. أنا بطبع لك الكتاب على حسابـــي، أنا بـــوفّر.. إنتي كتبتيه وخلصتي؟

ولكنني لم أبدأ حتى!

- أنا أطبعه، لا تخافين.. لا تفكرين بالكتاب ألحين، أنا يوعان.. إنتي مو يوعانة أسماء؟ ترى عندي خمس دنانير، شرايك؟

نهضتُ بشكلٍ آليّ، فتحتُ الثلاجة، كانت تئز، تجترّ خواءها، لم أجد سوى نصف بصلة وقطعتي جبنة مثلثة وكيس خبز لبناني وماء. لم يكن غداءً شهياً.

7

يتكرر المشهد: في الخامس والعشرين من كل شهر نصنعُ حلقةً صغيرة، حلقة صامتة، حلقة صغيرة وصامتة: لا نستحضر أرواحاً ولا نشعل شموعاً.. بل نفض مظاريف البريد حيثُ نخبئ نقودنا: ظرفٌ لمشتريات الجمعية، ظرف للبنزين، ظرف لفواتير الهاتف والانترنت.. نجزئ النقود حسب الحاجة، ويبدو كل شيءٍ في أوّل الشهر متقناً وصحيحاً، بعد خمسة وعشرين يوماً أعود لطرقِ باب والدي.. أفعل ذلك بآليةٍ، ويخيّل إليّ أنه ينتظرُ زيارةً كهذه.

- كم باقي؟
- 11 دينار..

أزفرُ، يتأملني خجلاً وكأنه المسئول عن إفلاسنا، أرمقه شزراً وكأنه المسئول عن إفلاسنا! أشيحُ بوجهي، أدسه خلف ركبتيّ و.. يدهُ تدعكُ كتفي برقة، أكره ذلك، أكره أن يفعل ذلك، وأحب أن أكره ذلك، أشعر ببوادر اهتزاز بذيء في أطرافي، كل مبادرة لطيفة من طرفه تفاقم فظاظتي.

- و550 فلس.

أثبُ، ألفّ رأسي بالشال الأسودِ، يتبعني مثل صوصٍ مذعور..

- وين؟!
- بشوف أبوي.
- يمكن ما تحصلينه عند وسمية ألحين.

- صلوا العصر، أكيد ألقاه، اليوم الاثنين.
- ممم..
- باي!

.. أنــزلُ الدرج، رائحة بولٍ وطلاء ونتانة، الغبار متراكم علــى حواشي الممر الهزيل، أنتهي إلى باب، أطرقه..

8

كل شيءٍ اليوم يبدو على خلاف ما أراهُ عليهِ في أحلامي، كدتُ أنسى أن الزجاج أزرق.. هناك حيث نتأت عينان تشبهان عينيّ، أسفل الغرة الناعمة/ كانت صغيرة، لمّا تبلغ العامين ربما؟ كان اسمها دلال، وكانت أختي.. ولم يخطر لي أن عيني يمكن أن تبدو جميلة على وجهٍ آخر، خلتُ أن عيني دميمتان، أو بالأصح، أنهما سبب دمامتي، ولكنهما هنا، في هذا الوجهِ، مستديرتان كقمريْن، واسعتان ومكللتان برموشٍ مترفة، من يشوّه الآخر؟ عيني أم أنا؟

تنظرُ إليّ من خلف النافذة، وكأنها تنتظرني، تضغط بيدها على الزجاج وتنظرُ لي، وكنتُ أتساءل إن كانت تفكّر بأي شيءٍ فيما هي تفعل ذلك، دنوتُ.. جلستُ على ركبتيّ، وضعتُ يدي على الزجاج وحدّقتُ في وجهها طويلاً وكنتُ أتساءل.. إن كنتُ أفكر بأي شيءٍ فيما أفعل ذلك، وعرفتُ بأن كلانا لا تفكر بشيء، ولا تشعر بشيء، بل تفعل وحسب، لقد كنا هناك، نضغط أيادينا على الزجاج وننظر إلى بعضنا، نستسلم لغواية الطقس الجاذبة، نمتصّ بعضنا ونعيد ضخنا فينا.

فُتح الباب فجأة، تطاير الغبار في وجهي ورحتُ أدعكُ عينيّ، كانت "وسمية"، بقميص نومٍ ورديّ شاحب بأكمامٍ طويلة، ولفافات شعرٍ حمراء تملأ رأسها، وأحمر شفاه فوشيا صارخ. كان بطنها متكوراً، إنه لا ينفكّ يتكوّر منذ سبع سنوات، وكأنها لا تكتفي.

- أسماء؟

هل أرعبها؟

- شتسوين ع الأرض؟ قوميْ!

نهضتُ وأنا أنفضُ الغبار عن ملابسي، أسترقُ النظر إلى بطنها المدوّر، غطت بطنها بكفها وكأنها تخبئه، لم تعقّب، دلفت إلى الداخل وتركت الباب مفتوحاً، كانت تبدو مترهلة قليلاً، وسعيدة قليلاً، وحزينة قليلاً.

- وين أبوي؟

تنتشلُ ابنتها بين يديها وتضمها.

- أبوك راح المسجد وما رد..

ثم نادت على الخادمة "روووووزا!"، وأعطتها الطفلة.

- إذا تبين نطريه، بعد شويْ يرجع.

جلستُ، وجلستْ على المقعد المقابل، وهي تباعد ما بين ساقيها قليلاً، وتبدو لوهلة كالمخدّرة، وكأنها تنصتُ لصوتٍ داخليّ فيها، صوت يجيئها من هذه البطن باذخة التكوّر، بطن يجعلها تشبه قدّيسة، رغم أنها سافـ.. ـلة! على الأقل كما أراها، أصابعها أسفل بطنها، أصابع بيضاء مكتنزة مليئة بالقشطة..

- شلونك؟ ليش من زمان ما شفناك؟

- انشغلت شويْ.

ولكن بأيّ شيء؟ بي؟ ألمح طرفها يزيغُ قليلاً ويعود، تبدو متحفزة.. خائفة:

- شلون أمّك؟

- الحمد لله تمام.

- تكلمك؟

- تتصل ساعاتْ.. بس مو وايد، تدرين.. مكالمات.

ولا يبدو عليها أنها قرّت قليلاً، تواصل النبش:

- شلون الأردن؟

- تقول برادْ.

لماذا لم تسألني عن أسامة؟

- احنا بخير..

تهز رأسها:

- الحمد لله.

نصمتْ، تراني أحدّق في بطنها.. أحدّق/تنهض، تدلفُ المطبخ، وتعودُ حاملة علبة عصير برتقال وتمدها لي، أقبضُ على العلبة بيدي وأنتظر دقيقة، يُفتح الباب، وأراهُ.. أسمراً قصيراً مربوعاً متوسط السمنة بكرشٍ متدلّية، تحاصر وجهه لحية تشبهُ الهلال، ويرتدي دشداشة سكّرية اللون، كم أشبهه/أبي.

يهللّ:

- هلا وغلا! هلا أسّومة، وينك؟؟ من زمان ما شفتك!

أقبّل رأسه، أجلسُ.. أقبضُ أكثر على علبةِ العصير، يسأل ببشاشة:

- شلونك؟ شخبارك؟

- بخير.

- الحمد لله.. هاه؟ أمك شلونها؟ عسى مرتاحة؟

يبدو متوثباً، يبدو على وشكِ قفزةٍ عملاقة في وجهي، يبدو ببساطة.. مشتاقاً!

- اتصلت فيني قبل أسبوع.

- شتقول.. بشرينا عنها؟ عسى البلد عاجبها؟

ما فتئ يسأل عن أمي مثل عاشقٍ قديم، وزوجته تحتجبُ مثل إثم، أرى ذيل قميصها يطلّ من باب المطبخ، منذ أن قررت (أمي) بأنها لا تريده - قبل سنة/ متأخرة جداً حسب تقديري - وهو ما فتئ يعشقها، يعشقها! يرتشفُ أخبارها على مهل، محدقاً بسطح فنجان الشاي، يتذكّر أشياء لا أعرفها، أشياء تبادلاها في صميم العزلةِ، ليبدو وجهه أكثر عذوبة، وعيناه أكثر رقة.. لم تستطع أياً من نسائه الثلاث أن تمنح عينيه هذه النظرة.

- تقول الجو حلو، والحكومة هناك توصي ع الكويتيين وايد.. ما عليهم إلا العافية.

- الحمد لله رب العالمين!

ويطلق زفرته إيّاها، زفرته الفضيحة، زفرته الوشاية، إنه الحنين يجرّه من أذنيهِ إلى تحسس أخبارها، صوتها، وجهها، الطريقة التي تلعق بها أصابعها بعد الأكل، الطريقة التي تحيك بها مفارش للطاولات، الطريقة التي تغنّي بها في الحمّام، لابدّ وأن هذه الأشياء الصغيرة عصية على التسرّب، شيءٌ يجعله خلف أسباب التواصل، يمرّ على الديار ديار أمي و.. نسمعُ - تعقيباً على الزفرة الولهى - صوت تحطم صحونٍ في المطبخ، يتنحنح، يرفع صوته من مكانه:

- عسى ما شر أم محمد؟

- ما شر! طاح الصحن بس.

يبتسمُ، يغمزُ، يهمسُ لي "تراها غيورة"، وأشاركه الابتسام.

يردفُ:

- وانتِ؟ محتاجة شي؟ قاصر عليك شي؟ ترى أمس حوّلت لك 100 دينار على حسابك.

أُفاجأ.

- عسى يكفونك؟
- يكفوني يبه، يسلم راسك.
- عسى منتي محتاجة شي؟
- لا يبه، مابـــي شي.. يسلم راسك.
- وإذا أمك محتاجة شي..
- أمي ما تبـــي منك شي، خالي مو مقصر معاها.

.. وأشعر بلذة وقحة فيما أنا أعيد ترتيل هذه الحقيقة أمامه، يتنهد:

- الله يهديها، مادري ليش أمك جذي راكبة راســـها، هـــذا حقْ..
- كيفها يبه، على راحتها، وإنت عندك مسئوليات!

يصمتُ برهة، وكأنه يلوك شيئا في فمه، يحرّك لسانه أسفل لثته ثم يسأل، وقد اتخذ جلسة أكثر أريحية، وبدى في تمـــدده ذاك بيضـــاوياً وضخماً:

- أقول يبه..

يضع كفه على فمه ويتجشأ، يردفُ:

- تدرين خالتك وسمية حامل؟
- ع البركة يبه.
- الله مبارك.. حتى نادية حامل، بس توها بَالثاني.
- ع البركة.

يبتسم، تسرحُ نظراته في النوافذ، يتمدّد ويبدو في تمدده ذاك أكثر ضخامة واعتداداً وفحولة، أتجرأ وأسأل:

- هذا خامسكم؟
- السادسْ، شنو إنتي نسيتي محمد ولد وسمية؟
- صح!

- محمد حسبة ولدي.

البلاهة تطفو على ملامحي..

- محمد وفاطمة وعمر ومي ودلولة..
- ما شاء الله.
- ونادية ألحين عندها مبارك وعبدالله وسليمْ وبدرية..
- ما شاء الله.
- وإيمان عندها فرح وأسيلْ وأفنان ومنيرة وفجر.
- ما شاء الله.

كل هؤلاء - فجأة - إخوتي؟!

كل هؤلاء وجوه، أسماء، تجليات، كل هؤلاء.. فجأة، يتحركون، يتواجدون، يملأون الأمكنة، وأنا.. في الجغرافيا القصية للعزلة التي أختار، أتلقى وجودهم مثل بصقات لزجة على وجهي..

يتجشأ ثانيةً، ينفخُ الهواء:

- حلوة أساميهم، هاه؟
- حلوة.
- أنا دايما أخلي حريمي يسمّون عيالهم، أونّسهم!

ماذا يريدني أن أقول؟ بوركت الحرية؟ السؤال هو: ماذا كانت أمي تفعل طيلة ست سنوات في زيجة كهذه؟ تقشّر بطاطا؟

- فيك الخيرْ يبه.

لاسيما عندما يتحوّل الرجل إلى لجنة خيرية لإيواء العوانس والمطلّقات ومنحهن امتيازات تسمية أبناءهن!

- يعني هي تتعب وتحمل وتولد وتطلق وتاكل حلبة وحسو.. وآخر شي أنا أسمي الياهل؟ حرامْ.

أفلتّ ضحكة صغيرة، يبدو منتشياً، يهز رأسه..

- الصج الله يعينكم ياالحريم، حلبة وحسو..
- وقبوط ولهوم.
- الحريم في أمريكا إذا ولدوا ياكلون حسو؟

يتكلم مفتوناً، مأخوذاً بالتفاصيل التي ألفناها، سئمناها، لا شيء، ولا حتى ثلاث نساء، يستطيع إخماد هذه النظراتِ السارحة في أكثر عوالم الله سرّانية. عالم النساء.

يسألني فجأة، وكأنه يتذكر شيئاً:

- أقول يبه؟
- هلا يبه.
- إنتي مرتاحة بشقتك فوق؟ ما ودّك تقعدين هنيه مع "وسمية"؟ تدرين، وسمية وحدانية، وأنا مو كل يوم عندها.

غيظي يفور لثانية، أحاولُ أكبته، أتساءل، لو كان يهمّه أمري، لماذا تركنا وخرج من عقله ليبني ثلاث بيوتٍ أخرى، ثلاث أسرٍ أخرى، وكأنه يترأس حملة إنقاذ المنكوبات اجتماعياً، وكأن النساء بعن طريقه إلى الجنة؟ إن كان يهمّه أمري، أنا ابنته، التي أورثها وجهه قليل الحظ، لماذا فرخ في بطون النساء عشرين نطفة أخرى؟ وأمّي..

- لا فوق أحسن لي.
- .. أنا أقول جيبي أغراضك وتعالي خذي دار حمّودْ، قعدي مع خالتك، ونخلي حمود ينام مع ياسر.
- يبه أنا ما أرتاح هنيه، لازم أتحجب عن "محمد"، فوق أحسن لي، وبعدين أنا مو بروحــ..

وأحمد الله كل يوم لأن لها إبناً من زوج سابق حتى لا أضطر إلى التواجد في هذا المكان، أن أكون مفردة في عبارة هزليةٍ كهذه، جزءاً من لوحةٍ مفرطة الخبث والمغازي.

هبّ واقفاً:

- خير إن شاء الله.. المهم ديري بالك على نفسك، لا تقطعين أبوك.

نهضتُ، قبّلتُ جبينه، وتأملتُ جثته الضخمة تمشي بتمايل تجاه غرفة النوم.

عندما دخلتُ المصعد، شعرتُ بأنني أغادرُ الأرض إلى مكان أقل، ومكانٍ أكثر.. مكان حيث كل الأشياء تتحول إلى كائنات، وكل الكائنات تتحول إلى أشياء، بما في ذلك أنا.

9

أمي تطلي خديّ بالرمادِ وملابسي بالطين، لم تعد تغسلُ أظافري أو تمشط شعري، قالت بأن الكهنة رأوني وابتسموا، وبأنها شارة الرعب.. لم أفهم شيئاً:

- ماذا حدث للفتاة الجميلة؟
- لقد تزوجها المطر.

هذا ما قالته، وأخبرتني الفتاة التي كانت معي بأنها رأتهم يقطعون رأس الفتاة ويرشون الدم على بذور الفاكهة، ولكن أنا لم أر شيئاً، أمي أجبرتني على أن أنضمّ إليها في آخر الزحامِ وقالت "إذا مرت سنتين ولم يلحظوك ستكونين بمأمن".

ذلك اليوم، لم أتغطّ أثناء نومي وكان القمرُ بدراً، أمي توصيني دائماً بأن أتغطى في الليالي المقمرة، تقول بأنني إذا لم أفعل ستتخلق في أحشائي عوالم مجنونة، مع بزوغ الفجر شعرتُ بعضلات حوضي تتقلص وبدأت أنفخُ، أنفخُ وأصرخ وأعصرُ بطني.. انسلت من أحشائي حية صغيرة، تسلقت الحائط وخرجت من النافذة.

قالت أمي "سيخبر القمر الكهان، ستصبح الحية قربان الحياة، سيتعرفُ المطر عروسه"، دخل بيتنا رجلٌ أسودُ اللون، فتحت أمي الباب فأشار بإصبعه إليّ وقال "نحن نعرف".. اختفى الرجل، قالت أمي بأنه فنائي المجيد ولطمت وجهي..

استيقظتُ، لم أعد موعودة، بل مجرد أنا، بأزرار مفتوحة وياقــة مشرّعة على الممكن.

أنفضُ رأسي وأمضي، اليوم، بداية الذوبان.

10

.. أبلة حصة تنتظر عند الباب، جسدها يرقص لوحده، تصنع منحنياتٍ في مشيها، وتقبضُ يديها ببعضهما بما يشي بكثيرٍ من التحفز، هل تنتظرني؟ لحتني أقترب، هرعت إليّ ووضعت يدها على كتفيّ، اقشعرّ بدني واحمرّ وجهي..

- أسومة! تصدقين ماني قادرة أقعد؟ تصدقين؟!

ولم أكن لأصدّق، لم أكن لأصدّق بأن أي شيء، أي فكرةٍ مهما كانت خبيثة وبرّاقة.. يمكن أن تؤثر على سجيّتها المعتادة، تجعلها تخرج من هدوء القديسين، لتعيش - مثلنا نحن البشر العاديين - حالات انفعال، حالات فرح، حالات توتّر.. سجيّتها العصيّة على التحوّل، المستقيمة في سيرها نحو تكريس شكلها الساكن، تكريس ملامح قدسيتها الواعدة، لتعطيك الإحساس بأنها تتحكم في الأشياء، تتصرّف في العالم، تجعله أجمل من حيث لا ندري.. بأن أعناق الزهور تميل إليها حيثما تمشي، وكلما لمست غصناً أورق كرزاً وتوت، وكلما قبّلت ضفدعاً استحالَ أميراً وسيماً وهبته لفتاة وحيدة، فتاة توشك على السادسة والعشرين ولها وجه يشبه صندوقاً صدئاً و..

أمسكت بيدي وهي تجرني بلطفٍ خارج الغرفةِ، بعيداً عن أعين أبله صفية وأبلة نور المحدقتين فينا، إنها تتعامل مع الموقف بسرّية تفاقم من قدسيته، إنها تدخلني في أحد طقوسها الآن، وأشعر بالدماء فيّ تفور وترقص، أنا جزءٌ من هذه اللوحة أخيراً، إنها.. بلطف، تسحبني خارجَ

عالم الآخرين، تولجني في البقعة المباركة، في الوادي المقدّس، في مكانٍ يتعامدُ فيه الفانيّ فيّ مع الخالد منها.

وقفنا في الممر في الخارج، كانت الزوايا محفوفة بركامٍ من الغبار، الحرّ يلفح جسدينا، أسألها بحماسة:

- شفيك أبله؟

- مادري.. متحمسة يمكن؟ خايفة شوي بعد.. إنتي من صجك بتكتبين عني كتاب؟!

- طبعاً!

وأبتسم، أهبها أكبر ابتسامة أستطيع الإتيان بها، إنها لم تنظر إليّ من قبل كشيءٍ قيّم كما تفعل لي الآن!

- زينْ..

أخذت تلتفتُ فجأة ويدها ما تزال تمسكُ بيدي برقة، يدها رهيفة، تكادُ تنفرطُ وتنخلعُ عن جسدها لفرطِ ماهي ناعمة. أشارت بإيماءةٍ من رأسها إلى مكتبة المدرسة وقالت:

- تعالي المكتبة.

- بس الكلام ممنوع هناك أبله.

- يا بنتي من بنزعج؟ أشباح؟!

وأردتُ أن أضحك، أضحك من وجعِ المكان المتروك، من وطن الغبار والعفاريت وأسماء الموتى و.. لا يحدثُ عادة أن تجد شخصاً في المكتبة، ولكن، بما أن "الأمكنة مترعة بكائنات لا نراها"، بأي حقٍ نزعج هذه الكائنات؟ أبلة حصة لا تزعج أحداً، إنها تحبّ وحسب، ولو حدست بأن روحاً تغفو فوق دفة كتابٍ قد انزعجت من أصواتنا لطلبت أن نغادر المكان فوراً، إنها ناعمة، ناعمة حتى في الطريقة التي تجرني بها من يدي بطول الممر..

دلفنا غرفة المكتبة، المكتبة حيثُ الغبار وأسماء الموتى وأمينة المكتبة السمينة تقضمُ قطعة فلافل كبيرة، ترتدي حجاباً أبيض ونقاباً أسوداً تتركه متدلياً أسفل ذقنها فيما خديها يواصلان التضخم والحراك. جلسنا في طرف المكان، خلف رف كتب التاريخ، متقابلتين في البداية، ثم حركت كرسيها لتصنع زاوية 90 درجة، وبدأت فجأة تضغط أعلى أذنيها بإصبعيها الدقيقين، إصبعيها الطويلين الناعمين، ثم تنشقت الكثير من الهواء، وأدخلت بحركة آلية من يدها الشعيرات التي شقت طريقها خارج حجابها الأسود الخفيف، وظهرت اهتزازة منتشية في أقراطها الصغيرة المتدلّية من أذنيها الصغيرتين، بدت لي لحظتها جميلة أكثر من أي مرة، وكأن كل ملمح في وجهها يشارك بدوره ليدعم كلانية اللوحة الإلهية، كل ملمح صغير وغير ملحوظ يساهم بطريقته الخاصة في تكثيف ألقها، كلٌ يحاولُ بدوره، العين، الأنف، الشفاه، الـ.. كل شيءٍ في هذا الوجه يتحرّك نحو الكمال في صيرورة مستمرة، واعدة بالمزيد، شيءٌ يجعلها تنفذ من تعسفية الآراء، يجعلها متجددة بما يربكُ ويشلّ و.. إنها غير قابلة للالتقاط.

حدجتني بنظرةٍ مربكة، ثم ابتسمت ليظهر صف أسنانها المرصوص، وبدت متكلفة قليلاً، حذرة قليلاً:

- شلون راح تبدين معاي؟

أخرجتُ من حقيبتي مسجلاً صغيراً ووضعته على الطاولة أمامها، ثم أخرجتُ من جيب تنورتي ورقة صفراء لاصقة كتبتُ عليها الأسئلة التي افترضتُ أنني سأبدأ بها، ولسببٍ ما، غبي، مددتُ لها بالورقة، وشعرتُ مرة أخرى بما كنتُ أشعر به وأنا أقدم لها كراستي المدرسية قبل سنوات عدة لتقيّم مجهودي، وكأنني لم أكبر، وكأنني أنتظر – ما زلتُ – أن تلصق على جبيني نجمة حمراء لمّاعة وتطلب من بقية

الطالبات تحيي بتصفيق حار، بطريقتها الفاتنة في إلهاب حماستنا وهي تردّد "حارا حارا تصفيق حارا"، غمرني ارتباك مفاجئ، لقد كنتُ مرة أخرى وعلى خلاف المطلوب.. تلميذتها.

همهمت..

ثم نظرت إليّ وسألت مرة أخرى وكأنني لم أمنحها الردّ:

- حلو، بس شلون راح نبدي؟

- أنا أسألك أسئلة، وأسجل أجوبتك وأعيد صياغتها في البيت.. وإذا نقصني تفصيل معيّن أرجع وأكرر العملية.

- شنو الأسئلة؟

- مثلاً: لماذا اخترتِ التدريس؟ ولماذا اللغة العربية؟

قطّبتْ، يبدو أنني لم أوفّق، وشعرتُ لوهلة بأنها غاضبة، بل ساخطة، طأطأتُ خجلة..

- أسومة، قط قريتي كتاب سيرة ذاتية؟

- إيه..

- شنو قريتي؟

- "كفاحي" لهتلر.

- هتلر؟!

- "قصة حياتي" لشارلي شابلن.

- شابلن؟!

- نفس الشواربْ.

لم أقصد أن أضحكها، ولكن أسعدني أنها ضحكت.

علّقت:

- يعني إنتي مثقفة ما شاء الله!

ليكن! أنا مثقفة لأنني أحفظ اسمين أجنبيين!

- مو الأحسن إنا نبدي بطفولتي؟
- على راحتك.
- حلو..

وعادت تعدلُ وضع حجاها على رأسها، ثم أردفت كما لو أن همّاً قد أزيح عنها:

- شوفي أسومة، أنا أمس بالليل.. كتبت ورقة، بقراها عليك، وإنتي روحي البيت سمعيها مرة ثانية، وبيضيها.. وإذا احتجتي معلومات زيادة اتصلي عليّ.. وطرحي الأسئلة إلي تبينها، وراح أجاوبك بنفس الطريقة، وبلغة سليمة فصحى.

مهلاً! هل توسلت لأجل أن أبيّض أوراقاً كتبتها هي لأنشرها أنا؟! شعرت بالخيبة تسيلُ في ضلوعي، كدتُ أختنق. ليس من المفروض أبداً أن تتحرك الأشياء في هذا الطريق، وكل.. كل هذه الحماسة المثيرة التي تبثها في المكانِ، الحماسة التي تعبئني من أجل.. من أجل أن أبيّض أوراقاً مكتوبة، عوضاً عن أن أكتبها أنا، أكتبها وأتجرعها وأحياها وأنقلها إليّ و.. أنطلق فيها وأركض في لحظاتها وأتنشقها و.. لحظة النص، لحظة الغواية، لحظة الانسلاخ، الفناء، التملص من الاسم والوجهِ والقلبِ و.. التمفصل في حضورها، في تفاصيلها، في عطرها، في عصاها السحرية التي تخبئها في المقلمة، في الأغصان التي أورقت كرزاً وتوت، في الضفادع الذين أعادهم أمراء وسيمين، في كل هذا، كل شيء في العالم، كل شيءٍ تتصرّف به وتفاقم من سحره و.. كيف أكونها إن لم أكتبها؟ كيف أخرجُ مني وأدخل إليها ولو قليلاً إن لم..

- لا تحاتين أسماء، أكيد راح تكون فيه مواد.. مرتجلة، راح تكتبينها إنتي، بس كبداية، أنا أقول.. بداية بس!

إنها تحدسُ بـــي، خيبتي فواحة، فاضحة. طأطـــأتُ لبرهـــة، لا أريدُ - على أي حال وعلى أقل تقدير - أن أخسر تعاونها، أن أخسر حماستها، وهاتين الغمازتين الناتئتين، لا ينبغي أن أتصرّف بشكلٍ طائش الآن، ولا أستطيع أن أبرّر لها دوافعي أو أفضح عارم رغـــبتي بـــــ.. بتجسيدها، لا أستطيع، ينبغي أن أرضخ الآن، ستكون هناك نصـــوصٌ أكتبها أنا، أحياها أنا، ولكن الآن، عليّ أن أحذر، فلأرضـــخ لـــبعض الوقت وأكون تلك المتفرّجة، على أيّ حال، لن يكون مشهداً مملاً، بل سيكون على الغالبِ أكثر المشاهدِ بهاءً وقدسية.

بحركة آلية من يدي شغلت المسجّل، ولمحتُ ثغرها يبتسمُ، رغـــم أنني لم أكن أنظر في وجهها مباشرة، أخرجت من طيات ثيابها ورقـــة، ورقة خضراء.. غمزت وقالت بانشراح "لون العبقرية"..

أردتُ أن أخبرها بأن سجاد غرفتي أخضر ولكنني مجـــرد غبيـــة، ولكنها كانت مأخوذة بتفاصيلها، مأخوذة بلون الورقة، مأخوذة بكل شيء! فتحتها كما يفتح صندوق كنـــز، وتنهدت بعمق، وبدت تلك أشبه بتنهيدة عاشقة، ونظرت إلى الأعلى، وبدت رموشها طويلة، مثل رموش عاشقة! رفعتُ عينيّ، لأرى هذا الشيء الذي يغمرها، و لم أجد أكثر من مروحية صدئة..

11

"ولدتُ لأكون غمامة أيلول، أعبثُ بأطرافِ الصيفِ، وكنتُ جميلة..

كان التاسع من أيلول، وكان التسعة.. هو سرّي المقدّس، التسعة عنوان النقص الذي نقرأ به إنسانيتنا على أنها فضيلة، هو الكمالُ الوشيك.. بين التسعة والعشرة واحد، هذا الواحد هو الشيء الوحيد الذي يحول بيني وبين أن أتحوّل إلى ملاك، ولأجل هذا الواحد ولا شيء غيره سجد النور للطين.

لم أكن بيضاء كالثلج، وشعري ليس أسود، لم أشبه سنووايت أو سندريلا، ولكنني كنتُ أيضاً جميلة، في قلبي برٌّ أخضرٌ فسيح، وفي عينيّ قهوةٌ عربية وإثمدٌ مقدّس، "ينبتُ الشعر ويجلو البصر"[1]، لقد ولدتُ لأكون تلك التي تحبها الأشياء وتباركُ خطوها.. وأنا بدوري، أحببتُ العالم بكليتيه.

عندما ولدتُ، كان في المنزلِ ثلاثة أولاد، وبعد أن ولدتُ بخمسة أعوام، صار في المنزل ثلاثة أولاد وثلاثة بناتٍ لستُ منهم، كنتُ أتوسطهم جميعاً، وعندما تكون الأوسط يتحتم عليك أن تبحث لنفسك عن هُويةٍ لا تشبه الكبار، ولا يفهمها الصغار.. لكي تكرّس فرادتك، كان عليّ أن أدشن عالمي الخاص، أن أؤثثه بكائناتيّ التي تحبني، كائناتيّ الموجودة في كل مكان، التي توشوش في

(1) "خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر وينبت الشعر" - حديث نبوي.

قاع الكاس، وتلك التي تحطّ على أرنبة أنفي، والتي تجعلني أعطس..

كنتُ أتعمّدُ أن أنظر إلى السماء في أوج الظهيرة وأمعن النظر، كان الهواء يتخذ أشكالاً.. غريبة ومضحكة، وسمّيتُ هذه الأشكال.. أصدقائي.

كان بيتاً عادياً، حيث أمي تحب تضفير شعري، وحيث لي أخوة مشاغبون وأخواتٌ بكاءات، ومكتبة صغيرة، وطاولة ومرآة وعلبة كريم وزيت بيبي جونسون وفازلين أرطّب به شفتيّ، وكنتُ أكتفي بذلك.. كنتُ أكتفي!"

أغمضت عينيها لبرهة وهي تضمّ يديها إلى صدرها وتبتسمُ، بدت لحظتها وكأنها تعيش طقساً خاصاً، وكأنها تحتضنُ العالم، أو تتأمل انسلاله الشفيفُ إلى صدرها، ومكثت - على حالها ذلك - لبضع ثوانٍ..

شعرتُ بغرابةِ الموقفِ.. تساءلتُ إن كانت قد انتهت، ولكنني لم أنبس بشفة، لم أرغب حتى بأن أنظر إليها وهي تبدو في غمرة افتتانها ذاك قد نسيت وجودي تماماً، صمتّ، طأطأتُ، سجادة المكتبة خضراء، والفلافل التي تقضمها أمينة المكتبة خضراء، وليس في العالم سوانا.

فتحت عينيها، نظرت إليّ وابتسمت وكأنها.. وكأنها بدأت تحبني للتوّ! تحب حضورها فيّ، تحب جمالها في عينيّ، تحبّ كونها عالية ومتقنة ومتناسقة وبعيدة عن العيوب والثقوب والنقص والعلل والزوائد و..

سألتني سؤال الواثق:

- شرايك؟

- وايد حلو أبله.. روعة!

ولكن لم يعجبني أنه بهذا الإتقان! هل سينتهي بـــي المطـــاف لأتحول إلى ورقة كربون؟ كان عليّ أن أشارك في هذا المشروع، فهـــو فكرتي! شعرتُ في داخلي بنـــزعة مقاومة، نـــزعة مقاومة لكل السحر الواثق الذي تبثه، لم أعد أشعر بـــي موجودة في اللوحة، لم أعـــد في البقعة المباركة، ولا في الوادي المقدّس، بل مجرد أخرى من مريديها تسرّ لها بأكثر الأشياء عادية في صيغةٍ تحوّلها إلى تجلياتٍ للمقدّس منها، إنهـــا حتى لم تخبرني بما جعلها مختلفة، ولكنها كرّست اختلافها علـــى أرضٍ أكثر عاديّة من أي شيء، أسرة نموذجية، أم تمشط شـــعرها وإخـــوة مشاغبون.. ليكن ذلك! ولكنني أريدُ أن أدخل المشهد، هذا المشـــهد العاديّ والذي يستقي بهاءه من عاديته، أريدُ أن أدلقـــه فيّ، أريـــدُ أن أكتب!

عليّ أن أسألها شيئا، وستجيبُ بالعامية، وسأكتبُ أنـــا الـــنص بنفسي! سأجيء باللغة، سأختلقها وأحررها وأحياها و.. سألتني:

- خلصنا ورقة اليوم؟
- آآ..
- شنو؟
- أنا ودّي أسألك..
- تفضلي.

تغيّر وجهها للحظة، ارتدى مسحة قلقة، وكأنها لا تريـــدُ شـــيئا يتحرك خارج الخطة، خارج سيطرتها المحكمة والناعمة لدرجة القتـــل، لدرجة الاختناق.

إنني أتخبّط، أضربُ في جميع الجهات، أشعر بـــي غير مرئيـــة، أشعر بـــي مجرد أداة تكمّل ذاتية اللوحة، مثل المســـجل والورقـــة الخضراء والفلافل في فمِ أمينة المكتبة والمروحية الصدئة و.. ينبغي أن

أفعل شيئاً، ينبغي أن أخرجني من عدميّة اللحظة رغم حضورها المنتفخ في المكان:

- أبيك تكلميني عن أمّك، وتأثيرها عليك.

وفوجئتُ بها تغمضُ، وتعود يدها اليمنى لتضمّ يدها اليسرى وتبسبسُ.. أو تبسملُ.. وسمعتها همس بشيءٍ يشبه "حبيبتي".. ثمّ انطلقت تتحدث بالفصحى، حتى شعرت بأننا لا ننتمي إلى المكان، أو الزمن أو.. لا ننتمي إلا لأحلامنا.

"حبيبتي أمي، إنها مشغولة طوال الوقت.. مشغولةٌ لدرجة أنها لا تجد الوقت لكي تشعر بالسعادة مثلاً، وأحياناً، أتمنى أن أتحوّل إلى قدرٍ، أو ملعقة خشبية، أو سكين تقطيع اللحم.. فقط لأكون جزءاً من عالمها"

ولكن ماذا عني؟ كيف سأصير جزءا من عالمها؟ هل أتحوّل إلى ورقة خضراء لتقدّرني هكذا؟ فتحت عينيها، وشعرتُ بأن هذا كلّ شيءٍ، حاولتُ أن أبتسم، وكنتُ أراها تتضخم وتكبر، أو تشعرُ بأنها تتضخم وتكبر، كانت سعيدة بنفسها، سعيدة بالأشياء التي تقول، منتشية وراضية ولو استطاعت أن تقبل أطراف أصابعها لفعلت..

- يعني أمك تقريباً غايبة عن حياتك؟
- من الصعب أن نصف شخصاً بهذا الحضور على أنه غائب، إنها في جلدي، مثل وسمٍ مقدّس، وكل شيءٍ فيّ يحيلُ إليها.
- بس تقريباً إنتي اتخذتي كل قرارات حياتك بدون تدخل منها؟
- لأنها تؤمن بالحرّية، لا.. لأنها الحرية.
- هذا صحيح.

وخفتُ أن أضحك، لأنني صرت - لا إرادياً - أجرفُ إلى الفصحى غير المألوفة في الحوارات التي نتداولها، شعرت بأن في الأمر

بعض المبالغة، أن تستخدم لغة فصيحة في الرد على أسئلتي المطروحة بعامية سخيفة، وبقدر ما بدا الأمر غريباً ومشوشاً بقدر ما كانت هي واثقة، مثل شخصٍ يتنقل بين غرف منزله، كانت اللغة - بكل جبروهّا - بيتها الأليف، المكان الذي توجد من خلاله، المكان الذي يفتحها على العالم في عناقٍ أبديّ.

- وأبوك؟
- أبي؟
- نعمْ!

وكدتُ أن أضحك أيضاً..

- يقولون: كل فتاةٍ بأبيها مغرمة، ولكنه رحل - عن هذا العالم - قبل أن أغرم به، أنا لا أعرفه، لا أعرفُ كيف سيشعرُ لو رآى ما صارت إليه ابنته، إن هذه (اللا معرفة) هي معاناتي اليومية التي آلفها..
- وتفترضين إنه غير راضي عنك لأن عندك وعي مغاير للسائد؟ كيف تتحركين وتنحزين في مجتمع ذكوري مثل هذا؟ وهل واجهتك عقبات قبل ما تشتغلين؟ هل..

رنّ جرسُ نهاية الحصة، وبدت سعيدة بالنفاذِ مني، من أسئلة - ربما - كانت مفرطة في التقليدية والحساسية، تنبش في المشاكل و"المانشيتات" المثيرة، لغة صحافية لا يسيلُ لعابها إلا لأدراجِ الإناث الخفيّة، لغة يزعجها أن تكون الأمور على ما يرام.. هذا صحيح، أزعجني أن يكون كل شيءٍ على ما يرام!

- أسماء، أتركككِ على خير، نلتقي غداً وسأحضر معي ورقة أخرى.
- .. ؟؟

- بلونٍ آخر!

ومضت.. غمامة أيلول! فيما أنا أتساءل إلى أي حدٍ كنتُ غبيـــة ومتطفلة؟ دفنت رأسي في الورقة الخضــراء، حيـــث اللغـــة فســيحة كحديقة، لا تعني شيئاً وتأخذ كل العالم في قلبـــها، لغـــة تـــذوّب في سديمها كل أنواع الكائنات، حتى تلك الشائهة، مثلي أنا، وشــعرتُ بـــي أتقزم، أتقلّص، أتقوّض، أ..

.

12

ظهيرة لاهبة، رطبة! كل شيءٍ يذوب، يسيل، يبكي، بما في ذلك جلدي، أشعر بـي أسيل، الظلال شحيحة والضوءُ بذيء في حضوره والحَر، يقولون بأن جهنم تتنفس فوق صدر الوطن بالضبط. عندما فتحتُ الباب تنشّقتُ هواءً حلواً، كان أسامة جالساً على الأرض، في وسط غرفة الجلوس، على السجادة المهترئة، واضعاً يديه على ركبتيهِ، متربعاً، مغمضاً، وقد حلق شعر رأسه كله، ورص حوله سبعة أصص صغيرة لنباتات تطل برؤوسها خارج التراب حديثاً..

- أسّوم؟!
- أسـ*ـاوووم*!
- الحمد لله والشكر!

لو كانت الظهيرة أقل، لو كانت أبلة حصة أقل، لو كان اليوم أقل.. لكنتُ الآن أضحك. أتركه، أدلفُ غرفتي، أخرجُ من حقيبتي رزمة نقود، أفتح الدرج، أخرج مظاريف البريدِ وأقسمُ المال بينها بالطريقة التي أتبعها كل شهر، أربعون ديناراً للجمعية، ثلاثون ديناراً للمطاعم، عشرون ديناراً لفواتير الهاتف.. كل شيءٍ منظم ومرتب وصغير، من السهل السيطرة على عالمٍ بهذا الحجم، ولكن.. لو كنتُ بيل غيتس مثلاً، كم ظرفاً سأحتاج؟!

أتمدّدُ على بطني، أخرجُ – من طيّات ملابسي – الورقة الخضراء، الورقة العبقرية، وأنظرُ.. أنظرُ، أشعرُ بكثيرٍ من الافتتان وكثيرٍ من النفور، حبٌّ أم رعب؟!

- بسم الله!

إنه خلفي تماماً، غريبٌ تماماً، من غير شَعْرٍ ومن غير سوء، كيف بوسعه أن يدخل الأمكنة بدون أن يصدر أي صوت؟ إنه يتحرّك كالفراغ، في جميعِ الاتجاهات وببساطة غريبة. يضحك..

- خرّعتك؟!
- إنت ما تبطل هالحركات؟!
- لا طبعاً.

يتمدّدُ على السرير إلى جواري، أنهضُ محرجة، منزعجة، فيما يلوّح بساقيه في الهواء وقد أسند وجهه إلى كفّيه، حضوره بهذا القرب يجلبُ الكهرباء، كثير من الشحنات السالبة في داخلي، وكأنه ليس شقيقي.

- متى حلقت راسك؟
- اليوم.. حلو؟

أتأمله، ما زال نضراً مثل غصن زيتون.

- شلون لقائك مع أبله حصة؟

أحكّ قفا رأسي، أهمهم:

- كل شي زين.
- وليش مبوزة؟
- مو مبوزة!
- مو هذا إلي تبينه؟ تكتبين عنها كتاب؟
- المشكلة..
- إيه؟

يعتدلُ جالساً، يمنحني كلّ تركيزه، أردفُ:

- إنها صارت تكتب.. وأنا أنسخ.

- أفا..

.. أشعرُ بحاجةٍ غريبة لإطلاعهِ على مجريات اللقاء!

- المشكلة الأكبر..

- ايه؟

- إني ولا في أحلامي.. أقدر أكتب عنها.. مثل ما تكتب هي عن نفسها! أسلوبها حلو، وايد حلو.. لدرجة إني ما أفكّر.. ما.. ما أقدرْ.. فهمت؟؟

يمسك بالورقة، يمرّر بها عينيه، يشمّها، يقرأها مفتوناً/نافراً، الحب/الرعب..

- بتكملين شغل معاها؟

- أظن.

- ليش؟

لأن الأمر يتجاوز فكرة صناعة كتاب، إلى التعذر بأي شيء لقضاء الوقت معها، للإنصات، للإنصات المستميت، الإنصات المقدّس لكل الأشياء التي تقول، لن أستسلم في أوّل نزالٍ لي ضدّ.. ضدّي أم ضدّها؟ المهم أنني لن أستسلم، سأحقق بها فنائي، سأدرسها بكل جهدي، سـ.. إنها قريبة الآن أكثر من أي وقتٍ آخر ولن أفرّط في ذلك.

- أسومة، كلامها حلو.. وايد حلو.

- أدري.

- عيل ليش ما كتبت من قبل؟

- ما أدري.

ما أعرفه أنني سأكون المرآة، سأكون الآخر، سأنحلّ مني وأستشهد فيها، سأكون من بين شرذمة مريديها، مثل زمرة الفتيات

الصغيرات اللاتي تدرسهن، تفتنهن بلا مبرّر، مثل جنيةٍ طيبة بنوايا آثمة، سأمد جذوراً عنيدة في عالمها، عميقاً صوب سرة العالم.

13

.. لو كان الصمتُ كائناً، يتواجد ويغيب، يكبر ويضمر، يتآكل ويموت، لعله كان سيتحرك كما يفعل أسامة، بالطريقة المشبوهة التي لا تبدر عنها نأمة، حتى عندما يأكل، أو يمضغ، أو يمص عود العصـــير، لا شيء.. لا صوت!

- شـــ كنت تسوي اليوم؟
- يوغا.
- شالطاري؟

يمضغ، يمضغُ مستعجلاً:

- اليوغا مفيدة.
- من يقول؟
- تدرين إن 60% من مرضى السرطان يتحسنون إذا مارسوها؟
- اليوغا؟
- ايه.
- وإنت شدرّاك؟
- أسومة أنا ليش طايح من عينك؟

أحاولُ الحدّ من روعتك على الأرجـــح، أقصـــيك، أرفضـــك، أطردك، أكرهـــ.. قطب وجهه بتلـــك الصـــيغة الطفلـــة، أردتُ أن أضحك، لو كنتُ أكثر لطفاً لضحكت قليلاً، ولكنني عوضاً عن ذلك حاولت إرهابه:

- لو يدري عنك أبوي يقول ولدي كفر.. يقول ولدي صـــار بوذي!

- "الحكمة ضالة المؤمن"[1]..

يغمزُ لي/أسأله بخبث:

- أسّوم شتقرا هاليومين؟

- ولا شي.

- جد شتقرا؟

- ولا شي..

- قول عادي ما أعلّم أحد.

يصرخ بانفعال:

- أسماء والله ماقريت شي والله ما قريت شي والله!!

ويواصل المضغ، أومئ، إنه هو.

خلتُ للحظةٍ أنه ليس أكثر من صورة لها

أبلة حصة.

(1) حديث نبوي.

14

هذه المرة جلسنا على كراسي الحديقة الخلفية لمبنى الإدارة، هي تزعمُ أن الجو لطيف، أنا أتعرّق بإفراط و.. تركت حجابها رخواً لكـــي تبـــدي أقراطها الطويلة التي ترتدي، إنها - مذ بدأنا المشروع - وهـــي تفـــرطُ في الزينة، وكأنها في كل يوم على موعدٍ مع حبيب، مع ذاتها ببساطة.

هذه المرة، لن أترك الأمر يفلت، أريدُ الحكاية لا الشـــعر، أريـــدُ الأشياء التي حدثت، لا الأشياء التي تتحرك في رأسها، مهما جـــاءت فاتنة وشاطحة إلى البعيد، أريدُ أن أكون في قلـــبِ الحـــدث، أُحيـــي الحدث، أحيا الحدث. الورقة خضراء في يدي، اخترتها خضراء، ولكنها لم تنتبه للموضوع، تجلسُ قبالتي، بأصابع ناعمة تدفع خصلات شعرها الكستنائي خلف أذنيها وتبرز القرطين الزرقاوين المتأرجحين، ثم تخرجُ من حقيبتها ورقة أخرى، وردية تماماً.. هل تصعب مسايرتها إلى هـــذا الحد؟

تبتسمُ بغبطة وتغمز، مثل شخص يخفي سراً آثماً.. تسأل:

- حلو اللون، مو؟

ربما ما كان يجدر بـــي أن أقول:

- أبله حصة.

- عيونها!

هكذا تناديني مذ عكفنا على مشروع الكتاب، أبلع ريقي وأردف وجلة:

- العالم مافيه ألوان، مافيه ولا لون!

تضحك:

- شلون يعني العالم مافيه ألوان؟

إنها - وهي تسايرني لمجرد المسايرة - لم يخطر للحظة أنني جـادة لها..

- درسنا في العلوم إن الألوان تحدث بسبب انعكاس الضوء على الأجسام بزاوية معينة.. تخلينا نشوف السما زرقا، والورد أحمر، بس فعلياً.. فعلياً مافي لون أبله، مافيه ولا لون، مافيه شي أصلا، كل شي تشوفيه وتحسينه.. مو موجود مثل ماهو في الواقع، العالم وهم!

وضعت يدها على كتفي وهي تهزّ رأسها موجوعة، لم تنظر في وجهي كي لا تسرب إليّ جزعها، أعرفُ.. كم كنتُ قاسية، أنخل شاعريتها بغربال، أقتل عالمها، أقتل التفاصيل التي تحبّ بساديّة مفرطة، أهين القصائد والأيقونات والنجوم وكل الأشياء التي تخبئها في قفصها الصدري، إنني.. كمن يحدّث عاشقة عن خيانات حبيبها، أفرّق بينها وبين العالم، العالم الذي يطلق روحها بالصبغة الأجمل، إنني بكلامي هذا، أتجاوز التشكيك بمصداقية العالم إلى التشكيك بها، أتجرأ عليها، أنفي جمالها، كينونتها، خصوصيتها، إنني ببساطة أقتلها.

بدت وكأنها عاجزة عن مواكبة ترهاتي، لأنها ظلت تحدق في ورقتها الوردية لبعض الوقت ثم قالت بصوتٍ مرتجف:

- الحمد لله على نعمة البصر والبصيرة.

وشعرتُ بأنني قزمة عمياء.

15

"كنتُ – منذ صغري – مجذوبة إلى العالم، كنتُ وحيدة، ولكن بإرادتي، لأنني مليئة بالآخرين، وأشعرُ بأن في كل واحدة من مسامي كونٌ منفصل، أحبّ أن أنصت لهذا العوالمِ فيّ، أحبّ أن أنصت لكل شيء وأتساءل عن الحكمة الكونية من وجودنا في الحديقة مـــثلاً، أو من وجود هذه الفراشة على تلك الأقحوانة الصغيرة"

لم يكن ثمة أقحوانة، إنها تتخيّل،

بل تكذب!

"لقد صادقت الأشجار في طفولتي، كنتُ أطلق عليها أسمـــاءً.. وأشعر بالأمان بوجودي في غمرة ظلالها، صادقتُ كل الكائنـــات.. حتى صغار الكتاكيت في حظيرة الحضانة.. كل شيء"

– إلا البشر؟

تنـــزعج، تتكلف ابتسامة:

– لا طبعاً، عندي أصدقاء آدميين!

ضحكتُ.. لأنها تجعل أمراً بهذه البديهية غريباً، ابتسمت بلطف، سألتها مشاغبة:

– أنا صديقتك أبله؟

تبتسمُ، تتململ:

– طبعاً أسومة.

– كان عندك صديقة طفولة في المدرسة؟

- بنت عمي.. سارة.
- تشبهك؟

تقرأ الفقرة الثانية من الورقة:

"كنا كالتوأم، سارة وأنا، وكان عندنا أسرارٌ كثيرة، كانت سارة تخفي تحت سريرها صندوقاً مليئاً بالقواقع، والملبّسات، والأزرار الملوّنة، والصور اللاصقة الجميلة..

وأنا، كان صندوقي - بدوره - يضمّ أزهاراً مجففة، كنتُ أرش عليها من عطور أمي، وكلما فتحتُ الصندوق تغمر الغرفة رائحة ذكية، مزيج من الورد والخزامى.. كانت تلك الرائحة هي سرّ الأسرار عندي"

أقاطعها عامدة:

- ممكن تذكرين لي بعض المواقف المميزة إلي صارت بينك وبين سارة؟

تبتسمُ، يدها فوق رأسها، وكأنها تخشى أن أقتلع رأسها بتلك الأسئلة، أو تخشى أن تطير الكلمات الجميلة فلا تعود. تهز رأسها قليلا وتجيبُ بفصاحة:

- تسللنا مساءً خارج المنزل، وكانت الأحياء لَمّا تعمّر جميعها، قررنا الذهاب إلى أحد المنازل حديثة البناء التي لم ينتقل إليها أصحابها، قالت سارة بأننا سنعثر هناك على أسرارٍ كثيرة، أشياء جميلة لصناديقنا، لا شيء يغوي البنيّات الصغيرات كالأسرارْ.. كانت تلك البيوت بمثابة الألغاز، لأنها لا تشبه بيتينا القديميْن المهترئين، وكنا نتمشى هناك.. الأرض من تحتنا إسمنت وحجارة، ثمّ..
- ايه أبله شصار؟

- عثر علينا بعض العمّال، هددونا بالضرب.. وبالاتصال بالشرطة، ركضنا -أنا وسارة- عائدتين إلى المنزل، كان الجميع غاضباً، لا يجدر بالبنت أن تخرج وحيدة في هذي البلادْ.

- وبعدين؟

- تعرضنا - سارة وأنا - لاستجواب قاسٍ ومطوّل، كنتُ صامتة، رفضتُ أن أفشي سرّي، رفضت أن أخبرهم بأنني أبحث عن أسرار لأن عالمي واضح ومفتعل، بأنني أبحث عن معنى مؤبد، عن رمز يفضي إلى حضارة لم تكتشف، عن لغزٍ مستعصٍ.. لم أتكلم، أخبرتهم بأنني ألعب.. سارة كانت الأضعف، قالت بأنها تبحث عن أشياء لصندوقها.. منذ ذلك الحين لم يعد لسارة صندوق أسرار، و لم نعد صديقتين.

إنها تعوّل على تأثري، ولكن الحقيقة أنني كنتُ سعيدة.. لأنني تخيلتها مادة شيقة للسيرة التي أنوي كتابتها، وأردتُ أن أواصل هذا الشّكل، أن أمزق الورقة الوردية البغيضة وأجعلها تحكي، تحكي لي عن ذكرياتٍ شبيهة، ولكنّها مشت بعيداً.. ببساطة، مثل شبح.

لا أذكر أن جرس حصتها قد رنْ.

النار

"موسم الغرسِ/سفر الثورة"

1

يقولون بأنك إذا حدّقت في الهاوية فإنها تبتلعك إلى أغوارها، وتبتلعها – بدورك – إلى أغوارك.. ولكن، ماذا يحدث للمرء إذا حدّق في عينين جميلتين؟

.. مدوّرتين بإتقان، وكأنني أكتشف فيهما عظمة الدائرة، وبهاء الشكل، كيف يمكن أن يضمّ العالم شيئا مكوّراً إلى هذه الدرجة، ويكون بذات الأصالة؟ حتى الكرة الأرضية، لم تعد كروية، إنها بيضة عملاقة لجنينٍ نافق، لنطفة لن تتخلق، لحياة لن تفقس وتعلن عن نفسها في سبيل أن تبقى وطناً للطفيليات، لنا! ولكن تلك الأعين.. إنها التمامُ عينه، الابتداء والانتهاء والأزمنة المقدّسة. ماذا لو انتزعتهما من وجهها، لو لصقتهما على وجهي، كم ستبلغ دمامتي؟ إنني أتساءل كيف يمكن للجمال أن يكون بذات المزاجية والتقلّب، كيف يكون عصياً ومستعصياً، وفي الوقتِ ذاته.. يتحرّك كل شيء في العالم إلى النمطيةِ، إلى الواحدية، بذهنية مصادرة لأبسط حقوق الاختلاف، حتى على مستوى الأجسادْ.

ما الذي يحدث لو حدقت في عينين جميلتين؟ هذا ما يحدثُ تقريباً: تشعرُ بالجمال يركض فيك دافئاً شهياً، مثل خيطُ ماءٍ

ينــزلق أسفل ظهرك، يرقص جسدك لوحــده وتســمى رقصــته القشعريرة.

كانت تضغطُ أنفها وعينيها على الزجاج، فاردة يديها الصغيرتين كمن يحتضن الفراغ، يحتضن العدم، كانت كاللغز، ولم أفهم لمــاذا.. كنتُ في كلّ مرة أجدها ملتصقة بزجاج الباب الخلفيّ، أجلسُ علــى ركبتي، أضع يدي مكانَ يديها على الزجاج، وأحــدّق.. أحــدّق. لم أفهم هذا الطقس، ولكنني شعرت بأنها تنتظرني، وبأن الزجاج بمثابــة عدسةِ مكبرة، من جهتها، ومصغّرة، من جهتي.. وكأنها روح أخــرى لي، روح أجهلها، تعيش حياة أخرى، بيني وبينها بــرزخٌ أو يكــادْ، زجاجٌ أو يكاد، بابٌ أو يكادْ..

شيءٌ برتقالي يتحرك في الخلف، فستان؟

فتحت "وسمية" الباب، كانت تخبئ شعرها خلف كيس نــايلون، وتفوحُ منها رائحة زيت الزيتون، أظافرها مطلية بالأحمر، خلــتُ أن أحداً لم يعد يستخدم هذا اللون في طلاء الأظــافر الآن! ولا حــتى في طلاءِ الشفاه.. ولا حتى.. الأبيض رائجٌ جداً، موضة عدمية بامتيازْ!

- تعاليْ.

أتبعها.. أتبعها مأخوذة بزينتها البالية، قميصها البرتقالي الطويــل، الفضفاض، بأكمامٍ قصيرة ودانتيل أبيض يطرز أطرافه، هــل مــا زال الناس يرتدون أشياء كهذه؟ أراهنُ بأنها تشعر كأميرة.

أتبعها، ذيلُ فستانها يرفرفُ كعلم، هل هذه.. غرفة نومهمــا؟! أزدردُ ريقي وأدلفُ، أتساءل إن كان عليّ أن أخلع نعلي، وهل هــذا مكانٌ مقدّس أم مدنس، تجلسُ.. تومئ لي، وأتنشــقُ رائحــة طــلاء الأظافر في منخريّ، نفاذة وقارسة.

- وين أبوي؟

- اليوم مو يومي.

أتساءل إن كان عليّ أن أتعاطف معها، أم أعتبرها متواطئة ضد نفسها؟ أجلسُ وحسب، أتمنى أن أكفّ عن التفكير، لماذا أدخلتني إلى هنا طالما أن والدي غائب؟

تبادرني:

- شلون أمورك؟
- بخير.
- تحتاجين شي؟
- لا.
- أي شي تبينه قولي لي.. حتى لو.. مكياج.. أي شي.

مكياج؟ أيّ شيءٍ طرأ على عقلها؟

- دلال تسأل عنك..
- وينها؟
- تحوس في المطبخ، مع النّمل.
- يحليلها.

أبتسمُ، وكأنها تحضرُ صورة قديمة لي، هل كنتُ مولعة بالنملِ أيضاً؟

- مزيونة ما شاء الله.
- أبوك يقول تشبهك..

أحمرّ، أحمرّ بإفراط.. أي تعسّف؟!

- نفس العيون.. أبوك يقولْ.

للمرة الثانية تؤكد بأن هذا "رأي أبي"، واضحٌ أنها لا تتفق معه.

- أمس سأل عنّك.

- تسأل عنه العافية.

- كله يلومني، لأنك مو عايشة معانا.

- أنا مرتاحة فوق..

- أنا قلت له، بس هو..

- أنا مرتاحة.

- هو يحس إنك منعزلة، عن الناس.. عن العالم.

- ...؟

العالم؟ ما معنى هذه الكلمة؟ أين تبدأ وأين تنتهي؟

- يقول.. محّد يشوفك، كأنك مو عايشة.

تنفخُ على بنصرها، تقول دون أن تنظر إليّ:

- لازم الناس تشوفك أسماءْ.

أحمرّ، ربما من الغضب، ربما من..

- خاصة بهالعمر، لازم الناس تشوفك! إنتي (كبرتي)..

أريد أن أنام، أغمض، أهرب، أركض، أريدُ..

أريدُ أن أقرأ قصيدة ناعمة، أي شيء إلا..

- شفيك ساكتة؟ أنا أكلمك..

- شسوي مثلاً؟

معدتي تتقلص..

- أنا معزومة على عرس الخميس الياي، تيين معاي؟

- ؟

- عرس ولد خالتي.

وهكذا عثرت على الحل بزعمها! إنها حتى لا تشعرني بأنها تتحدث عن شأنين منفصلين، وهي لا تملك الوقت للتساؤل حول أسباب "عزلتي"، بقدر ما تملك حلولاً جاهزة، وأجوبة ملائمة،

وخطوات تنتظر التنفيذ، عرسٌ واحد أحضره وتنتهي المشكلة، يكـفّ أبـي عن لومها، وربما تلمحني امرأة تبحث عن كنةٍ تلائمهـا، كنـة تنظر إلى الأرض طوال الوقت ولا تعرف كيف تضع المكيـاج علـى وجهها و.. ستشعر وسمية بكثيرٍ من الرضا عن نفسها وستقول بأنهـا تريد الأجر من الله، في سرّها ستشعر بأنها تفوقت على أمّـي، بأنهـا أنقذت حياتي، هكذا تحدثُ الأمور هنا، عرسٌ واحـد، يحـلّ جميـع مشاكل فتاة توشك على العنوسة، عرس واحد ويعود كل شـيء إلى مكانه الصحيح، في بلدِ الأعين، في بلدِ البحلقـة، في بلـدِ الفضـول والعدسات المكبرة وعشاق البصبصة.. في بلدٍ كل أبطالها جمهور، وكل جمهورها أبطال، عرسٌ واحدٌ يكفي ليحلّ كل شيء، لكي يعرف الناس كل شيء، لأن الأعين ستكون مشمّرة ونافرة ومتوثبة و..

أريدُ لهذا الوجهِ أن ينتهي، أريدُ أن أقيم في وجهي وليمة ديدان.

- بس أنا مو معزومة.

- من يقول مو معزومة؟ حتى دلولة عازمينها!

تشيرُ بذقنها إلى أعلى المنضدة، ألمح أربعة أظرف سكّرية اللـون مربوطة بشريطة ذهبية..

- أسماء لازم تثقفين فيني، أنا أعرف مصلحتك زين.

- أنا مرتاحة..

- شلون تتزوجين إذا إنتي عايشة بروحك؟ البنت مكانها بيـت أبوها، لغاية ما تتزوج، وضعك هذا غلط والناس تشره علينا.

- بس أبوي عنده ثلاث بيوت!

ألمحُ في طرف شفتها تصعيرة، هل أوجعها؟ أبتسم، يا للغضـب عندما يبتسم.

- الزواج مو كل شي خالتي وسمية.

تهز رأسها..

- إنتي ألحين تقولين جذي، بس إذا صار عمرك خمسين.. وما لقيتي أحد حواليك، بتذكرين كلامي، أبوك وأمّك - اللهم يخليهم لك - مو دايمين لك، شوفي سلمى بنت عمتك، رفضت أربع خطاب وآخرها هذي هي.. محد يدري عنها ولا يسأل عنها من توفى أبوها، ولا شوفي فاطمة بنت أم ياسر الـ..

إنها لا تعتذر، إنها تخبرني - وحسب - بأن هذا الوجع المقحم فيَّ هو لأنها تخافُ أن تبلغ الخمسين وتجد نفسها وحيدة، شيء يبرر أن تزاحم امرأة أخرى سرير زوجها، بيت زوجها، اسم زوجها، أطفال زوجها و.. تلك الأمثال نضربها للناس، ومعدتي تتقلّص، جلدي يتيبّس ويقشعرّ. أنهضُ بتثاقل، يأتيني صوتها من مكانٍ سحيق:

- وين رايحة؟
- أنام.
- قعدي شوي، لاحقة ع النوم والكسل طول النهارْ.. عندي موضوع لكْ.
- مابي أروح العرسْ.

.. ولا أريد أن أبدو كمهرّجة في زمن البحلقة.

- مو العرسْ، شي ثاني..

تغيّرت نبرة صوتها في الحروف الأخيرة، باتت أعذب وأكثر خبثاً، أجلسُ.. أجدني مشدودة إلى صوتها، أراها.. تبتسمُ، تواصل النفخ على أظافرها:

- أسماء إنتي مو صغيرة وأنا ما أحب المقدمات.
- شالسالفة خالتي وسمية؟

- هو خوش ولد.
- هو؟

هكذا ببساطة، ببساطة أن تتلقي بصقة طائر على كتفك، ببساطة أن تتعثر بخشبة بناء وتسقط وسط ضحكات الآخرين، ببساطة أن تصاب بالزكام، ببساطة الأشياء المرعبة والغبية!

- مدرّس تربية بدنية، وراتبه حلو.. وعطلة بالصيف ثلاث شهور بعد، شتبين أكثر من جذي؟ عشان تسافرون وتستانسون!
- خالتي!
- أصغر أخوانه، تزوّج وطلّق مرّة.. بس ما عليك، العيب فيها هي مو فيه، هو خوش ولد وما يعيبه شي، أكيد هي..
- خالتي منو هذا؟
- اسمه طارق، ولا تردين علي ألحين، أدري إنك بنت أبوك وراسك يابس.. قعدي مع روحك شوي وفكري، زين؟ وقت ما تبين دقي علي وقولي لي شرايك، على فكرة أمه معزومة على العرس وفرصة حلوة عشان تشوفك و..

شفتها حمراء متكنزة، تفتح، تغلق، تفتح، تغلق، بعيدا، هناك، في المكان الآخر..

2

وجهي ملطخ بالرمادِ والرّمل، قالوا:

- حان الوقتْ.

أنا جالسة على الأرض، أحدق في السحن الصارمة الودودة، اقتربَ مني رجلٌ ضخم وحملني بين يديهِ، لم تفعل أمي شيئاً، شعرتُ بي خفيفة، مشبوكة إلى سلكِ غمامٍ رفيع، ساروا معاً.. أربعة رجالٍ وأنا، كانت الطريق جديدة، لا أعلم بوجودها حتى.

مررنا بكثيرٍ من الحقول، بعضها أصفر، وبعضها أخضر، قال الرجل الكبير الذي يحملني:

- هذا ما أنتِ لأجله.

- سأتزوج المطرْ؟

- ستكونين الأرضْ.

.. وغفوتُ على ساعده، وعندما استيقظت كان المكان جديداً، لم يكن بيتي، كانت أرضية الغرف من الرمل وتفوح منها رائحة البخور والدّم، هل هذا قبر؟ لم يجبني أحد، غرستُ أظفاري في بطنِ الأرض ولما أخرجتها كانت مغطاة بالدود، غرستُ أظفاري في بطنِ الأرض ولما أخرجتها كانت مغطاة بغبارٍ أبيض، غرستُ أظفاري في الأرض و.. كان هناك الكثير من الجماجم التي تبتسم.

قالوا: من لبّ الموتِ يخرجُ الطّلعْ.

في البدء كانت دودة..

الجماجم تتحرك وتكتسي لحماً، آمنتُ: كل الجماجم لحسناواتِ القرابين، رحت أمزّق وجهي لكي يتحوّل إلى جمجمة، سال خيطٌ من الدم من أنفي فاستيقظت.

بقعة دمٍ لزجة على قميصي ووجهي..

أسامة يقفُ عند رأسي ويمسك منديلاً رطباً وكيساً مليئاً بمكعبات الثلج.

أشتهي أن.. أشتمه!

والرّعاف..

- شتبـــي؟!

- تنـــزفين وإنتي نايمة!

- إنت مالك شغل، لا تتدخل! أنـــزف.. ما أنـــزف.. أنـــا حرّة!

يضعُ الفوطة المبللة على أنفي وفمي:

- ششش!

3

إذا كان مكان المرأة هو المطبخ، فلماذا يتحرّك كل شيءٍ هنا بعكس إرادتي؟

عندما انكسرت قارورة زيت السمسم على الأرض فاحت رائحةٌ عنيدة في الهواء، رائحة لن تترك المكان وشأنه، لأن كل شيءٍ يتحرّك هنا عكس إرادتي. لا أعرفُ كيف أعدّ الأرز دون أن يتحول إلى عجين، وبقدر ما أفرك بطن السمكة بالكمّون والكركم تبقى الرائحة مقززة، آخر مرة قشرت فيها جزرة غرست السكين في إبهامي، ولو فكرت في طريقة لعقاب شخص فأول شيء يتبادر إلى ذهني هو تقطيع بصلة إلى مكعبات صغيرة.

إن كل شيءٍ هنا يعاندني ولكن عليّ أن لا أصدّق ذلك، عليّ أن أصدّق ما يقال وأشيح عن التساؤل والمساءلة، إنهم يقولون وحسب، يقولون وحسب، لا يكلفون أنفسهم إلا عناء القول ويتركون الفهم اليائس لأمثالي: المرأة لا تصلح للقيادة، المرأة لا تصلح للبرلمان، المرأة لا تصلح للرياضيات، لماذا ينبغي أن يخبرني العالم عن مكاني الصحيح عوضاً عن أن أكتشفه بنفسي؟

أسامة سيعود، حاملاً بيده كيس مكدونالدز أو شيءٍ آخر، وسيرى أني أبكي لأنني لا أستطيع التخلص من زيتِ السمسم على البلاط، وسيضمني إليه و.. هل أخبره عن "طارقٍ" لا أعرف عنه شيئاً ويريدون مني أن أشاركه الحمام والسرير والمناشف الخاصة وحتى الأحلام والحيوات الثانية في البعيد و..

قد يكونُ هناك إناثٌ في هذا العالم بارعاتٌ في التعامل مع المطبخ، حتى لكأنها تشعرك بأنها والمطبخ عشاق، كل شيء يتناغم معها حتى يخيّل إليك أنها ترقص، وأن ثمة موسيقى كونية تبارك حراكها المقدّس، وستبدو بمريولُ الطبخ المشجّر بالأحمر والبنفسجي، رشيقة وجميلة، وامرأة تامة، وعندما ستمسك بالملاحة لترش الملح على الطعام سترش بالقدر اللازم بالضبطِ، بلا إفراط ولا تفريط، أي حبة ملح زائدة ستتدخل ريحٌ إلهية وتطردها، لأن الكون برمّته يساندها في عملها ذاك، قد تكونُ هناك امرأة كهذه، نساءٌ كهذه، كثيرات ربّما، ببشرةٍ بيضاء وشعر أسودٍ طويل ناعم تلفه بعشوائية.. أتخيّل، ربما كلنا نتخيّل نساءً كهؤلاء، كلنا نتخيّل النساء أصلاً، نساءً ورجالاً.. نتخيل النساء! الفضائيات فعلت فعلها.

يقول العالم بأن المطبخ هو المكانُ الصحيح للمرأة

رائحة الزيت نفاذة

أنا..

أتقيّأ على البلاط

أتقيّأ زيتاً.

4

.. الأرض هشة، دافئة، أنا مغروسة في الرملِ، مثل شتلة، أحدهم يهمسُ في أذنيّ: ماذا تقول لكِ؟

- من؟
- الأرض، ماذا تقول لكِ؟
- هل تتكلم الأرض؟
- ماذا تقول لكِ؟
- ولكن..
- ماذا تقولُ لكِ؟

مددتُ أصابعي داخل الرّملِ عميقاً، قلتُ "أخافُ أن يأكلني القارض" ولكنّ أحداً لم يسمعني، قلتُ "أريدُ الماء" ولكنهم استمروا في الصمت، ماذا لو خذلتهم؟ ماذا لو لم يكن ثمة صوتٍ في الأرض؟ ماذا لو لم أكن "المعنية"؟

لا بدّ أن أحاول.. سأنبش احتمالاتي وأرصها أمامهم، أجمّع تفاصيلي وأعرضها على العالم ليرى ثرائي..أطفالٌ وزيتٌ ورمّان!

أغمضُ

أحبّ

أريدُ!

أسمعُ بكاءً، رجالاً ونساءً يصرخون، أصرخُ، أرتجف، أجدف خارج الرمل، جسدي في الرمل، الرمل حار، رأسي في الخلاءِ مثل بوقٍ

يسرّب أصوات الموتى "الصمت غناء الموتى"، شيءٌ يدغدغُ قدميّ، القارض؟ أطرافي تذوب، تتهشم، تتفتت كالرّمل، أنا الرّمل، أنا الأرضُ، أريد الماء، أريدني، أصرخُ، الأرض تأكلني، أنا آكلني، آكل الأرض، الأرض تقرضُ أعضائي، الأرض جائعة، الأرض حزينة، من فصل السماء عن الأرض؟ أبكي، تمتدّ يده، تنتشلني، يلفني بقماطٍ أبيض، يسكبُ فوقي الماء، أتجسّد، أطرافي تتكوّن، أبعث..

أستيقظ.

5

- أسّوم؟!

لطخة زيت قاسية على خدّي، رأسي على طاولة المطبخ، الوجود غاب.

عندما عاد لم يكن يحملُ كيس مكدونالدز، كان يحمــلُ علبــة بيضاء كبيرة، وتبدو - أيضاً - ثقيلة، كان يضحك.. وهو يضعها بحذرٍ على طاولةِ المطبخ والشغف يبرقُ في عينيه، يرفعُ يديه في الهواء - معانقاً العالم - ويبتسم ابتسامة بعرضِ الأرض وأبدو أنا، في لهاثي الأبله خلف كل التفاصيل المباغتة، غبية جداً.

هل ثمة سبب في هذا العالم يبرر كل هذه الســعادة؟ أم أن كــل شيءٍ هنا متقن ورائع وملائم، ووحدي الخطيئة في حضوري..

- شفيكْ؟!

أبدو بلهاء، إذ أصابعي تتحسس ملمس الفوطة المضمخة بزيــتِ السمسمْ، أجفاني مترهّلة ثقيلة تفاقم من غباء اللحظة.

يهتف، بل يغنّي:

- كل عام وإنتي بخيـــــــــــــرْ!

ولكن، لماذا يمطّ كلمة "بخير" هكذا؟ لا لســتُ بخــير. أوليــه ظهري.. أرمي بالمنشفة في المغسلة، أفتح الصنبور، أنشق، أسعل..

- شالمناسبة؟!

- شنو.. نسيتي؟!

- شنو؟

- عيد ميلادنا!

- هه؟

- اليوم عيد ميلادنا أسوم!

.. يفتح العلبة بحماسةٍ ظاهرة، في الواقع كانت حماسته تلك أكثر من ظاهرة!

هتف:

- كيكة عيد ميلادنا!

مربعة تماما، صفراء تماماً، مزينة بنجومٍ صغيرة ودوائر مصنوعة من السكاكر والشوكولاة، مغلفة بشرائط مربوطة تصنع وردتين، وتبرز من منتصفها عصا صغيرة من الخشب، في أعلاها علمٌ صغير كتب عليه كلمة "أسوم"، كانت كعكة رائعة، وإذ أنا أتتبع ملامحها ويوجعني بطني فجأة و..

- شفيك أسماء؟!

- ...

- شفيك خيتي؟

- ..

- تعبانة؟

أركض/يدي على فمي...

...

...

على البلاط لطخة زيت.

6

لا أصنع صليباً على السرير، بل أصنع قوقعة، أكثر من قوقعة، أصنعُ نقطة، دمعة، شيءٌ مدوّرٌ، ولكنها ليست استدارة الكمال، بل استدارة التناهي. ينبغي على الزمن أن يتوقف، ينبغي علي أن أصمت، في الواقع، ينبغي على كل الأصوات في العالم أن تصمت، أن تصمت وحسب، وهذا الطنين البغيض في داخلي، والذي أسمّيه ضميري وظلّي.. الأزيز المستفز لمكيّف الهواء والغرفة التي لا تورق فيها الخضرة ولا..

- أسماء؟!

- خلني بروحي.

أسمعُ ارتدادَ الباب، أريدُ أن أنام، أطفو، مثل قطرة زيت فوق قطرة ماء[1]، وأنام.. وأفيق، وأنام، وأفيق، أتأرجح بلذة موجوعة بين عالمين، وألمحه - بين إغماضة وإفاقة[2] - جالساً في زاوية السرير، متربعاً، يقطرُ قلقه من عينيه.

- أسومة شفيك؟

أغمضُ، الصمتُ مريح.. والموتُ، لماذا لم أجدني في الحلم؟

- ما عجبتك الكيكة؟

- ...

(1) بتصرف من الشاعر اللبناني بول شاوول.
(2) بتصرّف من الشاعر المصري أمل دنقل.

- مو حلوة؟!

أتمدّدُ، أغمضُ، أنتظر انسلال الديدانِ من داخلي..

- ليش بكيتِ مساع؟

هل كنتُ أبكي؟ لا أذكرُ إلا الزيت، الزيت على قميصي والأرض والمغسلة و..

- إنتِ فيك شي ومو قايلة لي إياه؟

الصمتُ رائع، فيما الأسماءُ حكمٌ تعسّفيّ علينا بالتواجد، الأشياء التي لا تريدُ أن تكون، وأنا..

- كلميني أسماء، إنتِ فيك شي؟

- ..

- أنادي الطبيب؟

- ..

- أنادي أبوي؟

- ..

- أسماء!

- ..

- حبيبتي!

- ..

- كلميني!

لو أنه يصمت، لو..

- أسماء! أسماء!

لو ينتهي هذا الاسم المشاع، هذا الحزن المشاع! أبعده بحركةٍ من يدي، أوليه ظهري و.. يقبضُ على قدميّ، يضمّ ساقي إلى صدره، أسمعُ أنفاسه، صدره يرتفع وينخفض، يبدو كطفلٍ مذعورْ، هل اليوم هو

حقاً.. ميلادي السادس والعشرين؟ أسحبُ ساقيّ خارج عناقهِ، أنسلّ خارج الفراش، وأشعر بأنني أمشي على الهواء، الصمت يحميني.. الصمت يحرسني من الوجود، الصمت ممارسة عدمية بامتياز، الصمتُ قبري الرحيم، يدفع عني كل أسباب التواصل، يزجني في الانطفاء، حيث لا رائحة ولا بصر ولا يد ولا أخ يتبعني مثل ظلي.. يتبعني بعد ثلاث خطوات..

أتمدّدُ على الأريكة، أشغّل التلفزيون، فتاةٌ ترقص على "روتانا"، أخرى يقبّلها حبيبها على "الأم بي سي"، وهذه.. تطفئ شموع كعكة ميلادها الأربعين مع صغارها و.. أنا وحدي..

أتذكر وسمية، أقفلُ جفنيّ

ثمة من يعانق ساقيّ الآن

أنامُ قريرة ودافئة

كل عامٍ وأنا بخيرْ.

7

أريد الكثير من الصمت، أكثر من هذا (اللا صوت) الذي يحاصرُ المكان، أريد ثورة من الصمت، أريدُ أن أرى العالم ينكمش ويعود طفلاً، حيث الأشياء مفهومة وقابلة للقراءة، ربما كل ما أردته لحظتها هو أن أجر الزمن من أذنيه إلى الوراء.

أردتُ أن ألعب بالباربي! هكذا يتقوّض العالم: بالباربي. الباربي وسيلة مضمونة لكل صبية لكي تكون جميلة لبعض الوقت، وتصدّق بأنها كذلك بحيث أن كل مرايا العالم ستفقد سطوتها، ومصداقيتها، وعنجهيّتها في إظهارنا على خلافِ ما نحب، الباربي حلٌ أمريكي مبتكر، حلٌ أبسط من الاستنوام والحلم بحلمٍ جميل!

عندما نكون أطفالاً نكون كل شيء/ نكون كل اسم، نكون واسعين وفسيحين مثل باحة مليئة بالمراجيح، حيثُ أنا، وهو، والباربي وكلب الجيران والبقالة وكل شيءٍ مزيجٌ غير متمايز لذاتٍ واحدة هي في النهاية أنا وهو وهي والباربي وكلب الجيران والبقالة و.. عندما ألعب بالباربي أتحوّل إلى حسناء، أسكبُ الباربي في داخلي، أكون مثالية وحرة بدون ضغوطات، أجعل زوجة أبي شريرة وتغار من جمالي، أبكي في المطبخ موقنة بأن الجنية الطيبة لن تتأخر أكثر من خمس. دقائق ريثما تغلق أزرار فستانها الأزرق الطويلْ.. عندما أكون باربي أستطيع أن أتحكّم بمصيري، بأسئلتي الكونية، أغيّر أخي لو أردت، كما أغيّر فساتيني.

.. منذ الأمس لم نتحدّث، أتصرف مثل مخلوقة بلا اسم، مثل عدم محض، وأمارسُ - بلذة متناهية - عدميتي، عندما أسكب محتويات صندوق ألعابي القديم، المغبر، أنشرُ لعب "الباربي" على الأرض، وفساتينها وأحذيتها الملونة ذات الكعوب العالية ومشطها الورديّ و.. حبيبها الوسيم الطويل عريض المنكبين و..

.. ممسكة بواحدةٍ في كلّ يدٍ، أنصتُ إلى أشياء أعرفها، إلى طنينٍ أسمّيه ضميري وظلّي، ويدي تتحسس الجسد البلاستيكي المتقن، النهود النافرة والأفخاذ الصلبة، العيون الزرق والابتسامة التي لا تتغير، لا تتسع ولا تضيق، فكلّ شيءٍ في أمريكا بمقدار!

هذا - على الأرجح - ما يحدث عندما تلعبُ الطفلة بالباربي، ثم تمر عليها عشرة أو خمسة عشر عاماً لتعود وتتساءل: لماذا لا أشبهها؟ هذا ما يحدثُ بالضبط، نعرفُ بأننا كبرنا شاذين عن القواعد المسمّاة للجمال، وأن العالم حمارٌ كبير.. وثمة "طارق" على الباب يريدُ امرأة وحسب، أي امرأة، ولهذا جاءني أنا، لأنه ببساطة لا يطمح إلا بالسيطرة على عالمٍ واضح وباحتمالات ضئيلة للتمدد. وضعوا الجمال في براويز، حنّطوه، أخبرونا بأنه هيئة ثابتة، موجودة في مكانٍ ما، مكان آخر، دائما آخر! أخبرونا بأن الجمال هناك على أتمّ ما يمكن، أن الأشياء الجميلة جميلة لأنها تشبه الجمال "المحنّط" هناك، أخبرونا بأن الجمال قوالبٌ، وأجروا على إثر ذلك مسابقاتٍ لاختيار ملكة جمال لبنان والصين وبنغلادش.. ملكات الجمال نراهنّ توائم إلا قليلاً، الوجوه تنسخُ بعضها فخورة، لأن الجمال هناك، في مكانٍ آخر، وهو لا يمكنُ أن يكون هنا، لأن هذا المكان ليس آخراً أو بعيداً.

كيف يتصرّف العالم مع مشكلة الوجوه النافرة خارج جغرافيا الجمال المحددة تلك؟ حلٌّ أمريكي أكثر جذرية: عمليات التجميل!

بعملية تجميلية تستطيع أي واحدة أن تكون ملكة جمال، أليس ذلك رائعاً وسخيفاً؟! العالم ينقض كل ترهّات أبلة حصة، أن نختار وجوهنا عوضاً عن أن تختارنا، نسمّي الأمر تجلياً روحانياً في الطين، نسمّي الملامح شفرة الروح ومسيرةَ الفهم الأولى.. لو حدث وغيّرنا وجوهنا، هل يحدثُ تغيّر مثيلٌ في أرواحنا أم يحوّلنا إلى جسدٍ بلاستيكي مثير، كهذي الذي في يدي، والذي..

- شتسوين؟!

أخلع رأسها/ أعضه/ أكسر ساقيها/ أنتفُ شعرها. أجأر:

- مجزرة!

8

عندما يقلقُ عليّ أسامة يتظاهر بأنه غير قلقٍ، يشغلُ نفسه بـأي شيء، أي شيء لا يحتاج إلى كثير من التركيز لكي يراقبني عن كثب ويصطاد اللحظة الملائمة لإعادة ترميم ذلك الجسر المقطوع بيننا، لرقع الصمت بالحوار.

اليوم شغل نفسه بقراءة نصوص "البسطامي"، وكنتُ – في دخيلتي – أجدُ الأمر غريباً، ولكنه يجعل الأشياء النادرة متوقعة.

عندما دخلتُ إلى المطبخ وجدتُ أن رائحة السمسم قد تبددت تماماً، ولم أجد أي أثر لكعكة ميلادي الرائعة.. الحقيرة، الكعكة العاهرة! التي تحتفل – بكل بذاءة العالم – بي وأنا أجنحُ رغم إرادتي صوب نهايتي، إنها تخبرني بأنني لستُ متحكمة بمصيري ولستُ سيدة ذاتي، بأنني مجرد أخرى في هذا السواد الغفير الذي يسكب الزمن فوق رأسه، ومثلهم أتوق إلى اللحظة حيثُ المضيّ ليس هاجساً والمكوثُ ليس جحيماً، حيثُ الحياة ليست عقوبة لأنها هنا، ولأنها الآن، تجيءُ – – الكعكة المربعة المرعبة – لتخبرني بأنني لا أملك الكثير من الخيارات، وبأن الحياة لا تنتظر الذين يلوّحون في المحطّات، الحياة – ببساطة – لا تنتظر، ماذا أفعل لكي أجعل مضيّ الزمن أقل وطأة؟ لكي أجعل مضيّ الزمن يواكبُ مضيّي أنا؟ لكي أتصالح والزمن وأوشوشُ للجميع بأن ست وعشرين سنة بالنسبة لفتاة وحيدة وغير جذابة ليست بالأمر المريع، كيف أفعلُ ذلك؟ كيف أعودُ للتصديق بأنني أختارُ أو أريد،

لحين ميلادي السابع والعشرين حيث تتجدد الصدمة لأنام على الأريكة ليومين وأرى أخي يقبضُ على قدميّ قريباً من صدره لأن الوقت لا يرعبه، والموت لا يرعبه، والخواءُ لا يرعبه.. ووحدي أرعبه!

كيف أطردُ الزمن من وعيي؟ كيف أخرج إحساسي من الزمن؟ أي نشاط خفيف وغير محتاج لكثير من التركيز أو لقليل من التركيز، أي شيء يجرفني خارج الدائرة، فطيرة دجاج؟ ديوان ابن الملوّح؟ أغنية جديدة غير بائة للحنين؟ أي شيء، لا يهم، لا فرق!

رحتُ - بآليةٍ بالية - أطبخ، حساء البصل فكرة جيّدة، مع زيت الزيتون والخل والفلفل الأسود، وصفة بسيطة وسهلة، لا يمكنُ أن أفشل في هذه أيضاً، إنها واضحة، قليلة، قابلة للتحكم والسيطرة، وصفة سريعة لكي لا يعودَ الزمن ألمَاً، ولا يعود الوعي زمناً و..

أجعل شرائح البصل تذبل، أقليها حتى تحمرّ، أريدها متعبة وهالكة وذهبية و.. أريد أن تكف البصلة عن كونها بصلة، أن تنسى حقيقتها. أسكبُ الماء، سيغلي في غضونِ نصف ساعة، البصلة نسيت أنها بصلة، الماء والبصل جسدٌ واحد، الماء يغلي، شرائح البصل تطفو على السطح و.. طعمه سيء، طعمه - بالأحرى - بلا طعم!

بآلية وانطفاء أضفت مكعب مرق دجاج إلى الحساء، أتذوقه، إنه متقن، إنه رائع! هل هذا هو السّر؟ الوصفات الجاهزة، المخبأة في أدراج الأذكياء وجيوبهم؟ العالم وصفة جاهزة، النجاح وصفة جاهزة، كل شيء جاهز! الأجساد والطعام والحروبُ والملابس، كل شيءٍ جاهز وكل ما تستطيع فعله هو أن تجمع بعض المال، تحصل على سيارة رائعة وحساء بصل شهي، .إنه شهي فعلاً، ولكنه زائف، ولا أستطيع تبرير شعوري بالزيفِ تجاهه، إنه غير حقيقي، شبح حساء.. سراب حساء، كذبة حساء، هويته ضامرة.

لقد كفّ العالم عن كونه جغرافيا للاكتشاف، ببساطة مبتذلة تقرأ يومياً لافتات على شاكلة: كيف تصبح مليونيرا، كيف تصبح محبوباً، كيف تصبح ناجحاً، كيف تعد حساء في عشر دقائق، كيف تحصل على بذلة رائعة في ثانيتين، كيف تقرأ كتاباً عمره ألف صفحة في نصف ساعة، كيف تشتري ساعة "رولكس" بدون أن تغادر غرفتك، لم يعد ثمة ما ينبغي إنجازه، بات كل شيءٍ يحدث بسرعة تشعرك بأن الوقت الذي تمضيه في إعداد طبق هو وقتٌ ضائع، إن هذا الزمن كله.. زمن غشاش، والنجاحُ متوقف على قدرتنا على مواكبة الغش وتسميته "تكنولوجيا"، لأن كل أنواع السعي باتت سخيفة، وكل الأعمال الأصيلة التي تطهرنا من رجس العدم غير مبررة، يمكنك الآن أن تصنع حساءً في غضون عشر دقائق، ألا يعتبر ذلك ضرباً من الابتذال؟ ولكن ما هو الأمر المهم في الحياة الذي يجعل الجميع راغبين بإنفاق أقل وقتٍ ممكن في كل شيء؟ هذا العالم سريعٌ جداً ولكن ليس ثمة وقتٍ كافٍ لأي شيء، تستطيع أن تنجز كل شيء بسرعة ولكنك في آخر اليوم تشعرُ بأنك لم تنجز شيئاً، هذا التسارع لا يهبك الحراك ولا المضيّ، إنه قتلٌ بطيء، إنه شللْ.

وأنا هنا، حيث تتداخل الماهيات في فوضى مقدّسة ومدنّسة، أشيح عن العالم الذي يتحرّك خارجي، يتحرك في مكانٍ ما هناك، مكان آخر، مكان يبدأ بعد هذا الحائط، وبعد ذلك الباب، وبعد تلك النافذة، مكانٌ لا يعنيني بأيّ شكل، وأتساءل وأنا أتثاءب، كم سيستغرقهم الوقت لكي يجدوا عقاراً للإيدز، أو يكفوا عن الرقص في الفضائيات، أو يرقعوا ثقب الأوزون بغيمة سميكة، أو يرسلوا جميع الأسلحة النووية إلى المشتري.. في هذا المكان الذي يجوسُ في داخلي ويتحرّك بين أصابعِ قدميّ، أعدّ حساء بصل شهي وغير أصيلْ.

أطلّ عليه من باب المطبخ، يحدّق في الكتابِ بدون أي تعبيرٍ على وجهه، أخرجُ صوتي من حنجرتي أخيراً/ أسأله:

- عجبك الكتاب؟
- هممْ.
- أوكيه لا تردْ، تبـي شوربة؟
- طبعاً!

ينهضُ، الكتابُ يطير في الهواء، أسامة يجلسُ إلى المائدة - خلال لحظات - مسروراً، لا يحتاجُ الأمر إلى كثيرٍ من الجهد لإسعاد هذا المخلوق، ألمحه خلسة، لقد نبت شعره قليلاً، ويبدو وسيماً جداً بالبلوزة البنيّة التي يرتديها مع البنطلون البيج، فيمَ ألمح انعكاس صورتي على زجاج الفرنِ المصقول، شعري منكوش ووجهي منمش بنقط من الدم، وكأنني أغادر لتوّي نصيبي من الحمى.

يناديني:

- أسومة؟
- هلا.

أسكبُ الحساء في الإناء الغزيرْ وأغطي السطح برقاقة من الخبز المحمّص بالثومْ، وأنثر عليه بعض الجبن المبشورْ.

- فيه شي مضايقك وأنا ما أدري؟
- أبداً، مافيه شي.
- ..

يصمت، يبرطم. أوبخه:

- مو مصدّق؟
- لا.
- أحسنْ.

أضع الإناء أمامه تماماً، يتنشق الرائحة، يبتسم. كم تسهل قـــراءة هذا الوجه.

- حارّة.. انطرها تبردْ.

- تسلم ايدك!

- الله يسلمك..

أجلسُ، أطوي أكمامي، يردفُ وكأنه يبحثُ عـــن مـــدخلٍ إلى حديث:

- أسماء شلون أبلة حصة؟

- زينة.

- ماشية زين بالكتاب؟

- توني.. ما بديتْ.

يملأُ الملعقة بالحساء، ينفخُ البخار، يرتشـــفُ القليـــل.. يهمهـــم بنشوة:

- تسلم ايدك.

- الله يسلمك.

أراه، لا أعرف ما الذي أنظر إليه بالضبط.. يبدو راغباً بالحديث، وأنا راغبة بمزيدٍ من الصمت.

- أسماء؟

- نعمْ.

- أنا أكثر واحد يحبك بالعالم، تدرين؟

ولا يصلح لشيء آخر، ولا يجيد شيئاً آخر، لا شيء في جبّتـــه إلا الحُب، الحُب الذي ما فتئ يصوّرني - على الضفة الأخـــرى - امـــرأة شريرة، حبه قارس لا يرحم ولا يقبل بأنصاف الحلول.. حبه مزعج!

- أسوم لا تفتح موضوع أمس ترى مالي خلق.

- قولي لي بس..
- شنو؟
- ليش عصبتِ؟

أرتشفُ الحساء على مهل، على مهل: لينسكب الزمن بقدر ما يريد، لن أقلق!

- ليش أسماء؟
- استغربتْ بس.
- ليش؟
- حسبت اليوم عيد ميلادنا، مو أمسْ.
- والله هذا السبب؟
- إيه.

هل أبدو مضحكة عندما أكذب؟ أم مجرد عانس مثيرة للشفقة وطافحة بالحنق؟

- حسبت اليومَ الأحد، مو أمسْ..
- طيّب وليش زعلانة؟
- لأنّ..
- لأن شنو؟

أرتشفُ رشفةً أخرى:

- حسّيت إني بحفرة!
- حفرة؟
- ايه.
- شلون؟

عينان متوثبتان، رشفة أخرى..

- حسّيت إن الوقت صار يمشي من غير لا.. يهتم فيني!

- هه؟
- يعني ما يحس فيني..
- قصدك إنيّ ما تحسين فيه؟
- هو حمارْ.
- الوقت؟

أرتشفُ رشفةً أخرى، أضيف إلى رعبهِ:

- تدري عاد؟
- شنو؟

رشفة/ رشفة/ رشفة:

- مرة قريت عن آينشتاين..
- آها؟
- يقول الوقت يتجمّد في في الحفر..
- يتجمّدْ؟
- في الحُفر.
- بس..
- حسيت إني بحفرة.
- ؟!!
- أمس فهمت كلامه.

ابتسم ابتسامة بلهاء، وأنا.. ارتشفتُ ملعقة أخرى وكنتُ أشعر بلذةٍ آثمة، ولم أفهم معنى الأشياء التي تفوهتِ بها ولا من أين جاءت ولكنها كانت.. تشبهُ الأشياء التي نقرأها ولا نفهمها تماماً لفرط ما تفتننا.

- أسماء ماني قادرْ أفهمك.
- الوقت غشاش.

يبدو ضائعا، أداهمه بسؤال:

- وينها الكيكة؟
- تخلصت منها.
- ليش؟
- خفت تزعلك.
- كانت حلوة.

يتبسمُ ابتسامته الطفلة، يسأل بانكسار الخائب:

- عجبتك؟
- حلوة.
- أشوه.
- وكذابة.
- هه؟
- حلوة وكذابة!
- الكيكة؟

يزدردُ ريقه، الذعر يتكاثر في عينيه، يردفُ بحذر:

- أسماء إنتي تعبانة هاليومين، شرايك نروح البحر؟

ضحكتُ بمرارة، ابتسم ببلاهة، أردّ ببرود:

- أنا زينة، مو تعبانة ولا شي.
- بس..
- بس قفل الموضوع.

يرتشفُ رشفة أخرى، يردفُ بنبرةٍ جديـدة مفتعلـة.. مشـوبة بالأسى:

- أمس شريت لك هديّة.
- شنو؟

ابتسم، ابتسامة خجولة:

- صبارة.

وأشار إلى فوق الثلاجة، كانت هناك، في أصيص صغير، خضراء بيضاوية وترفع فوق رأسها وردة حمراء، مثل عمامة فاخرة، تشبه صبارته التي يستخدمها مثل ميكريفون للغناء.

- تحبين الصبار؟

- أحبّه.

ولكن كيف أشكره و.. هذي الدموع و..

لقد اختار نبتة صلبة، نبتة محبّة للحياة، عنيدة، نبتة لن تنفق في مجلس الموتِ/ غرفتي، وما زال يلحّ عليّ بضرورة "تربية" زهرة:

- قبل كم يوم شفت في برنامج إن النباتات تخلي المخ يطلق أشعة بيتا، وإن هالأشعة ترخي الأعصاب، عشان هالسبب تشوفين إلي يبيعون في محلات الزرع يبتسمون طول الوقت و..

- أسوم؟

- هلا أسوم..

- ياني خاطبْ..

وربما ليس ثمة ما هو أسوأ، أو أفضل، من خبرٍ كهذا، بالنسبة لمن تبلغ السادسة والعشرين، ولا تشبه البارببي في شيء..

- ومعزومة على عرسْ!

كم أنا كاملة، معبأة بالفرص!

9

ولكن كيف تبدأ الكتب؟ كيف يتكوّن مخاضُ هذا الشيء المخطّط له، والمرسوم سلفاً، على اعتبار أنها لا تكتب بعشوائية وبدون رغبة مسبقة. ولكن من قالَ ذلك؟!

ثمة خط أسود غير مقصود في الزاوية العلوية اليمنى. أمزق الورقة.

ربما يمكن أن تبدأ الكتب بدون رغبة، ربما أعظم الكتب بدأت بدون تخطيط مسبق، أعني أن أحدهم وجد نفسه يكتب و لم يستطع تفسير الأمر، يتكلم الناس عن شياطين الشعر، ربما هذا هو ما ينقصني، قرني شيطان، أغير بهما حياتي، ومنذ الساعتين إلا ربع الساعةِ وأنا أحدّق في الفراغ، أتساءل عن الفراغ، عن الطريقة التي تبدأ بها الكتب، هل تبدأ بالفراغ؟

لا أريدُ أن أكتفي بنسخ الورقةِ الخضراء، أريدُ أن أكتب، أريدُ لهذا الكتابِ أن يكون لي، أعني: لي أيضاً، وبدون أن أمثل في النص، أريده بي لا عني، عنها ولكن من خلالي، أريد أن أحضر في غيابي، أحضر متلبسة في حضورها، مثل الأشياء العظيمة التي لا يكتشفها الناس، مثل المرأة التي تقف وراء كل رجل عظيم، والمؤلف الذي يقف وراء كل رواية عظيمة، والأستاذ الذي يقف وراء كل تلميذ نجيب، والأم التي تقف وراء كل طفل جميل، 4 أريد هذا النوع النبيل من الغياب، غيابٌ يحضر في حضور غائب، غيابٌ سرّي، شيّق، مثير للتساؤل والفضول، أريدُ غياب الأشياء المهمة، أريدُ أن أشعر بي

في غيابـــي، أشعر بالدم يتدفق فيّ حاراً وشهياً لفرطِ ما أنا مهمّة وغائبة لذات الأهمّية، لن أحضر في النص، أي شيءٍ إلا أن يطفو وجهي المهرج أمام قارئ حذق، أي شيءٍ إلا أن أتعرّى أمام العالم في حضرةِ تعرّيهـــا لأعودَ مرة أخرى إلى الدور الذي أتقنه، دور النقيض الدميم، لن أظهر، ستظهر هي فقط، ستظهرني من خلالها، إنها لن تستخدمني، أنـــا الـــتي أستخدمها، هي موضوعي، هي في الضوء، وحدي في العتمة الظليلـــة الرؤوم الـــ..

أمزق الورقة. يجب أن أعثر على اللغة، أملـــكُ المـــواد، أملـــكُ الذاكرة، أملك قصاصات ملونة، ولكن اللغة عصية، إنهـــا في المكـــانِ الآخر. كيف أحصل عليهابدون أن أشير إليّ؟ بدون أن أتواجد، بدون أن أتحول إلى شيء، إلى اسم، إلى أسماء، إليّ أنا، بـــدون أن أعـــود إلي وجهي المجزرة، وجهي الصندوق الصدئ، وجهـــي تـــابوت الطفـــل، وجهي السمكة الميتة.. كيف أكتب كتاباً، وهذا مشـــروع وجـــودي بامتياز، وأبقى مغلفة بالمسافة والغموض؟

لن أكون في الكتاب، وفي المستقبل، قد يتساءل النـــاس، كيـــف كتبت سيرة شخص بقلم شخص آخر طالما أنه يتمتع بكل هذه الموهبة اللغوية، ومن هو هذا الآخر؟ ولماذا هذا الآخر تحديداً؟ بالضبط! إن هذا ما أريده، سأكون الآخر، سأكون غائبة وعظيمة لهذا الغياب و.. أنـــام ملء عيني عن شواردها.. و..

لا أريد أن أكتب بأنني أحبها، بأنها درستني اللغة العربية قبـــل تسع سنوات وأنني ما زلتُ أزورها كل أسبوع وكأنني أزورُ معبداً وأفضح عجزي المتفاقمِ عن تجاوزها، عن تجاوز النشوة التي كانـــت تعبئ الفصل القديم قبلَ سنوات والأعين المحدقة التي لا ترى وتبصر! لا أريدُ أن أبدو - بعد عشر سنوات - مجرد تلميذة وفية، لا أريـــدُ

حتى أن أبرر اختياري لها لهذا المشروع الذي سيصبح غيابي فيه بطولة، بأنها شخصية رائعة ومؤثرة في حياتي، لا أريدُ شيئا يشيرُ إليّ، أنا لم أكن حتى، لا اسم لي، أنا المشاع، الفراغ، السديم، الهيولى، الـ..

حسناً أنا أقرأ! أعرفُ أسماء لا يعرفها أغلب الناس، الاسم الذي يشبه عطسة ألمانية في وجه الوثوقية مثل "نيتشه"، والآخر الذي يشبه متاهة مثل "أمباذوقليس"، فهل يعني ذلك أنني مثقفة؟ هل يعني ذلك شيئاً أصلاً؟ هل يعني مثلاً.. أنني قادرة على الكتابة؟ أن أعرف نيتشه وأمباذوقليس و.. في الوقتِ ذاته.. أعجز عن جعل حياتي أفضل على أبسط المستويات، عن جعلي أكثر سعادة، أي ثقافة؟ أي دجل؟ ثقافة ميتة، لا تمنحني أفقا ولا سعة نظر ولا حتى عدسات لاصقة، إنها ببساطة لا تمنحني أي شيء، ورغم أنهم يقولون بأن علينا أن نفتش عن الأفكار ولا نقلق حيال اللغة، إلا أنني لا استطيع أن أفهم كيف تجيء الأفكار وتتبعها اللغة، أو تجيء اللغة متبوعة بالأفكار، وإذا كان ثمة فارق بين الاثنين أصلاً..

سأكتب كتاباً لأنني أريد تغيير حياتي، ولكنه سيكون كتاباً رديئا ونتناً مثل جيفة، لأنه مكتوبٌ بدمٍ ميّت. ماذا أفعل؟ عندي كل شيء! ولكن كل شيء لا يكفي، ثمة ما يعاندني، إصبع يضغط على أنفي طويلاً لأنني لا أستطيع إلا أن أكون عاجزة بشكلٍ غير مغفور، وهذه الأيام، حيث تنشط برامج الإصلاح الاجتماعي، الكل يمشي في الشوارع مردداً "إذا كنت شخصا عاجزا فأنت السبب"، إننا نلامُ اليوم على أحزاننا، عوضاً عن أن نحصل على طبطبات مؤازرة، في هذا العالم، حتى الحزن غير مريحْ، وتتحول العواطف - باستثناء فرحة النجاح - إلى مضيعة للوقت.

سوف أكتب كتاباً ميتاً، بلا مخاض ولا أحلام يقظة، سأكتبه دون أن يسكنني، دون أن أترك رائحتي على جلدهِ وبصماتي على رائحتـــه، دون أن يتذكرني أو أتذكّره، إنها فكرة حمقاء، حمقاء.. بقدر ما هـــي متناهية المثالية، أن تكتب عن إنسان لكي تسكنه، لكي تنسلخ منـــك، من جلدك القديم، هل فكرتُ للحظة بأنني إذا كتبت هـــذا الكتـــاب، سيتغير شكل ذقني؟ وبالتالي سأستطيع قول تلك الأشياء التي "نسيناها" والتي ترددها أبله حصة كالتعاويذ؟

إن ما أفعله جريمة، أنا أحوّل الكتابة إلى فعلٍ غـــير أصـــيل، إلى مكعب مرق دجاج!

10

- صار لك ثلاث ساعات حابسة روحك بالغرفة وما كتبتي شي؟

لماذا لا يصمتُ أبداً؟ أتمدّد على السرير، أنا لا أصلح لهذا العمل، الكتابة لم تصطفيني، طالما أن كل شيء يختارنا فأنا لم أهبها قرباناً و لم أرغب في يومٍ أن أكون كاتبة، ولا يهمني الكتاب بأي شيءٍ سوى أنه..

- نمتِ؟

ألفّ جسدي باللحافِ وأغمضُ، لو كانت وجوهنا تختارنا، والكتب والألوان وكل مفردات العالم، فأنا أصلا غير مختارة من قبل النصّ ولكنني أريدُ ذلك ولأسباب.. غير شريفة و.. أريدُ أن أغيّر شيئاً في حياتي!

- تبين مساعدة؟

ماذا يظنّ الأمر؟ سمكرة أنابيب؟ طلاء حائط؟ حساء بصل؟ ربما كانت الكتابة هي الفعل الوحيد الذي ما زال بالإمكان اعتباره غير ملوث بلهاث التسارع، خارج هذه النافذة وهذا الحائط الذي يحتاج إلى صبغ والباب..

يتربّعُ على السريرْ، على طرفِ السرير، يمسكُ بالقلمِ محدّقاً بالورقةِ بجديّة مفرطة، مضحكة..

- أسامة لا تلعب.

- مو قاعد ألعبْ.
- إنت شـــ عرّفك هالأمورْ؟

ماذا أيضاً؟ أخي يمارس اليوغا ويقرأ البسطامي ويكتبُ روايـــات و.. ماذا أيضاً من البذاءات الجميلة التي تفاقم نقصي وتجعـــل حيـــاتي أسوأ؟

- أنا شيطان الشّعر!
- لا يكون على بالك باتمان؟

نفخ صدره، قطّبَ، وبدأ يخربشُ في الورقة أشـــكالاً عشـــوائية، أجلسُ قبالته، أنظرُ بدوري، ما الذي يفعله؟! لا شيء إلا على الورقـــة إلا دوائر معاقة.

- شتسوي يا أخ؟!
- أحضّر أرواحْ.
- أسامة قلت لك عن اللعب!
- خربووش.. عركبوووش!
- أسوم!

يضحك..

- أتغشمرْ!
- اطلع برا خلني أعرف أشتغلْ.
- شوفي يا ستّي..

يضع القلم خلف أذنيه، ينفخ صدره، يحرك سبابته في الهواء: إنـــه يتصرّف مثل أستاذ يحاضر في جامعة.

- البداية الناجحة..
- ايه؟
- غالباً ما تكون متحرّكة.

- شلون متحركة؟
- يعني تبدين بفعل.. بحدث..
- على كيفك؟
- .. لأنها تشدّ القارئ أكثر من الجمل التقريرية.
- قرّرت؟
- يعني مثلا..
- ياخي لا تتفلسف فوق راسي.
- لو قلتِ: فتحت أبلة حصة الباب ورأت غولاً يرقص حـــاملا سلة أزهار..

ضحكتُ، كانت الجملة مفاجئة. ولكنه واصل بذات الجدّية:

- أحسن من إنك تقولين..
- ايه؟
- الأشجار تزهر في الربيعْ.

ثم تناول القلم من فوق أذنه ووقع في أسفل الورقة وأضاف:

- بالشفا!

قفز خارجاً وكأنه تذكّر شيئاً هامّاً..

اختفى ببساطة.

11

....

....

....

لأول مرة ألاحظ الخطين بين عينيها!

تتعرق يدي بإفراط، فيما المروحية المشنوقة إلى السقف تدير رأسها فوق رأسينا مباشرة.. لو أستطيع أن أغمض، أن أنام؟ ليست سطوة الوسن، بل ركضاً إلى خارج غثاء اليقظة ومهانة الخطين الحاسمين بين عينيها، الخطين اللئيمين، رقم 11 البذيء. إنها..

- شنو هذا أسماء؟! شنو هذا؟!

- ..

- ما تقولين لي شنو هذا؟!!

وتصرخ! إنها لم تصرخ عليّ قط، حتى عندما أهملت واجبي، حتى عندما تعمّدتُ أن أرسب في صفها، ولكنها الآن تصرخ، رغم أن الورقة زرقاء، والسجاد أخضر، والوردُ أحمر، و..

- إنتي!!

- ..

- كنتي تضيعين وقتي طول هالمدة؟!

نهضت من مكانها، لم تعد تستطيع الجلوس، صدرها النافر يعلو، يهبط، يعلو، يهبط.. وبدأت - فيما هي تتكلم - تزبد وتثيرُ قرفي..

- ما تتكلمين؟!!
- ...
- صمخا؟
- ...
- غبية؟!!

إذا تحدثت سيظهر لساني هزيلاً مثل دودة طويلة، لا أريد أن أتكلم، أريدُ أن أنام، أن أختفي. جسدها ينتفض وكأنها ممسوسة، وكأن سلالات عريقة من الجانّ تطلّ من عينيها وتهب هذا القوام ارتجافته و..

- هذا إلي طلع منك أسماء؟
- أبله أنا..
- شنو إنتي؟ إنتي شنو؟ صار لنا شهرين نشتغل.. وآخر شي..
- ..
- آخر شي..!

لم تعد تستطيع إتمام عبارتها، طفرت من عينها دمعة كبيرة، مسحتها بكمّها ثمّ فردت الورقة أمامنا وراحت تقرأ بصوتٍ غليظ مرتعش مفجوع:

"وُلِدَتْ حصة، وكان في المنزل ثلاثة أولاد، وبعد أن ولدت بخمسة أعوام، صار في المنزل ثلاثة بنات أخريات، وكانت تتوسطهم، ولهذا بدأت تبحث عن هوية لا تشبه الكبار، ولا يعرفها الصغار، بدأت تبني عالمها الخاص، وتملؤه بالكائنات التي تحبها، الموجودة في كل مكان.. والتي تجعلها تعطسْ!"

رمقتني شزراً، عينها اليمنى تلمعُ بإفراط:

- شنو هذا!
- هذا..
- إنتي من صجك؟
- أبله..
- تدرين إنتي شسويتي؟!
- ...

أطرق برأسي، السجادة الخضراء..

- تبين أقولك من وين إنتي كتبتي هالفقرة؟!
- ..
- إنتي غبية أسماء؟
- ..
- ولا تستعبطين؟
- ..
- ولا "حمارة"؟

ياه، إنها أيضاً: تشتم! أين كان هذا الوجه طوال ذلك الوقت؟ تخرج من طيات ثيابها الورقة الخضراء/ الأولى، تقرأ، بصوت غليظ، مرتعش، مالح:

"عندما ولدتُ، كان في المنزلِ ثلاثة أولاد، وبعد أن ولدتُ بخمسة أعوام، صار في المنزل ثلاثة أولاد وثلاثة بناتٍ لستُ منهم، وكنتُ أتوسطهم جميعاً، وعندما تكون الأوسط يتحتم عليك أن تبحث لنفسك عن هويةٍ لا تشبه الكبار، ولا يفهمها الصغار.. كان عليّ أن أدشن عالمي الخاص، أن أؤثثه بكائناتي الخاصة، الكائنات التي تحبني.. الموجودة في كل مكان، التي تضحك في قاع الكأس، وتلك التي تحطّ على جلدي، وتلك التي تجعلني أعطس أحياناً"

هذه المرة كان الدمع دودة تسيلُ على خدّها الأيمن، دودة من ماء:

- تدرين إنتي شسويتي أسماء؟

- ...

- إنتي..

- ..

إنها تختنق، تبكي، تدفن وجهها بكفيها وتبكي.. تجلس:

- أبله حصة..

تنهضُ، إنها تكرهُ صوتي، لا تريد أن تراني، لا تريد أن تسمعني. تشيرُ إليّ بسبابة بذيئة، جسدها ينتفض مثل جثة تنازع الموت:

- إنتي كل إلي كتبتيه..

تشهق، تنفخ مثل امرأة في مخاض:

- نسخة مشوّهة..

- ..

- من نصي..

وراحت تنتحبُ بصوتٍ عالٍ، وقد دفنت وجهها بين كفها وانهارت على ركبتيها بشكل دراماتيكي مفاجئ، في الوقت الذي دخلت فيه أمينة المكتبة وشهقت وهي تنظر إلي جسدها الذي يتصفد ارتجافاً:

- حصة شفيك؟!

وفي لحظات، كانت في حضنها تبكي، تبكي بإفراط، مثل امرأة فقدت طفلها، أو طفل.فقد أمّه، وبدأت أمينة المكتبة تبسمل وتحوقل وتصرخ في وجهي:

- إنتي شسويتي؟

- آآ..

هل كنتُ أبكي؟

- قومي جيبـــي ماي بسرعة..

ولم تكن قدماي في حذائي ولا في أي مكان آخر..

- يا بنت!

- ...

- وش فيك منثولة؟!

أبلة حصة تنوح، وخيوطٌ من اللعاب تتمطط بين فكّيهـــا وهـــي تردد:

- حسبـــي الله عليك يا أسماء!

- ماي!

- حسبـــي الله عليك يا أسماء..

- ما تسمعين؟

- حسبـــي الله عليك يا أسماء..

- صمخا؟

ولكنني كنتُ قد انطفأتُ. حتى آخر قطـــرة ريـــق، احتضـــرتُ كأرضٍ جافة، فيما المرأتان تصرخان وتنوحان بشكلٍ جنائزي لدرجـــة جعلتني أتساءل عن السّببْ، وأنا أنقل نظراتي بين وجهيهما، ثم بـــدأت أمينة المكتبة تركض إلى الخارج، تركض وتتدحرج مثل كـــرة شـــحمٍ عملاقة، في حين جلست أبلة حصة على الطاولة أمامي وهـــي تـــدفن وجهها بيديها وأنا..

كان حذاؤها بنيّاً..

- أسماءْ.

- ..

- ليش تسوين فيني جذي؟
- ..
- دام إنتي ما تقدرين على هالشي..
- ...
- ليش خليتيني أحلم..
- ..
- ليش!

أفتح فمي بآلية، أطلق الجواب الأكثر غباءً لموقف كهذا:

- هذي مسودة بس.

وناحت أكثر، وأنا قررتُ أن قدمي عادت إليّ، حملتُ أوراقـــي ومشيتُ.. مشيتُ خفيفة وحرة، مشيتُ على الهواء، وكانت الحرية هي الوجه الواضح للخسارة، وكانت الحرية - بخفتها - أثقل من سلسلة، تشدّ رأسي إلى الأرض و..

كل ألوانِ العالم دجلْ.

الماء

"بداهة الميلاد/شهوة الغنوص"

1

خفيفةٌ ومرهفة مثل أقراطِ عاشقة، لا أسيلُ ولا أركض، جذوري في بطنِ الأشياء، الحمى وكل الديدانِ التي تجيئني حلماً، حلماً.. تخبرني بأنني قطعة لحمٍ بائتة، ورغم أن أنفي معطّل، وأنني - مع كل هذه المناديل الموزعة حولي - أشبه أقحوانة كبيرة، فأنا أعرفُ بأنني نتنة، بأن التراب مقدّس، يواري سوءاتنا ويستر تفسخنا إلى أحياء أقل، كل شيءٍ - في الحمى - جميل، الهذيان وفرقعة التهتك والتعرق والأسئلة التي تتصعلك في رؤوسنا حيث تتقوّض ملامح العالم و..

- أسومة؟
- ..
- سويت لك شوربة!

تستطيع أن تصنع من البطانية مهاد طفل، تلفها على جسدك وتتحول إلى دودةٍ عملاقة، ولأنك محموم، لن يسخر منك أحد إذا لم يطابق البنطلون الذي ترتديه القميص الذي ترتديه أو لا ترتديه! وبوسعك أن تلبس زوجين مختلفين من الجوارب، وأن تنام، وأن يغمى

عليك في أي مكان، بانيو الحمّام مثلاً.. الحمى ترسلك إلى الحرية في أكثر أشكالها أصالة.

- حبيبتي أسماء؟

- ...

يده فوق جبيني، أسحب رأسي إلى الداخل، أنا الآن.. حلزون عظيم وعندي مأوى يعصمني من الماء والنار والتراب والريح، من العالم، بيتي مني وأنا منه، بيتي أنا.

- مو مشتهية شوربة؟

- ...

أستطيعُ أن أبتر أعضائي الخائنة، تلك المغروسة عميقاً في قلبِ الأشياء والروائح والوجوه، أصمت، أنطفئ، أتخيّل في نهاية النفق العظيم الذي يبتلعني ضوءاً أزرق.

- كلميني؟

الكلامُ أسماء، الأسماء قسوة، قذفٌ للخارج، التزام بالوجود، تقويضٌ للأعذار.. تحمل مسئولية ما خيّرنا قبل حملِها و..

- حبيبتي!

- ...

لا أمدّ له رأساً ولا يداً، ولكنه يضم وجهه إلى قدمي، اليمنى بجوربٍ أحمر، اليسرى بجوربٍ رماديْ، وكأن الجنة تحت قدميّ!

2

الشمسُ مركونة في طرف السماءِ، نقطة في آخر السطر، أتأملها بدون أن أقطّب، تشرق اليوم لا شعاع لها، أنظر في عين الشمس وتنظرُ الشمس في عينيّ وأغني مع الهديلْ.

الغرفة مليئة بالعصافير، العصافير تحطّ في راحتي وتأكل من جسدي، جسدي يتفتت كالرغيف وينبت ما إن يتفتت، أزليّة وجميلة، آكل التفاح والتين، أزين شعري بزهور البرتقالِ وأشرب الشاي الأخضرْ..

- أسومة؟

أفتحُ عينيّ/ ألعنه.

يضعُ يده على جبيني:

- راحت الحرارة!

مستبشراً يهتف، تباً، ماذا لو بقيتُ هناك أكثر، لو بقيت الحمى هنا؟ الحمى ترسلك خفيفاً إلى العتبة المقدسة، أنظرُ حولي، أوراقي الملونة ممزقةٌ أو تكاد، لا أذكر شيئا، باستثناء أنني مشيتُ على الهواء، غرفتي فوضى: كتبي مرمية وممزقة، صوري مرمية وممزقة، ملابسي مرمية وممزقة.. وحده كان ناشزاً من اللوحة، ينظر إلي.. وأشيحُ، تتسلل إلى المكان موسيقى، يلقي نظرة على شاشة هاتفي الخلوي "هذي أمّي".. يقول، يبدو غاضباً.

- ألو؟

- ألووو.. أسومة؟!

- هلا يمه.

يختنق صوتي في المنتصفِ تماماً، صوتها مطر:

- هلا أمي، هلا عيوني!
- هلا يمه.
- شفيك؟
- مافيني شي.

هل يمكن أن تكون ثمة أم غير جميلة؟!

- شفيه صوتك يمه، خرعتيني؟
- ماكو شي والله، بس حرارتي مرتفعة شوي.
- يا قلبـــي! وبروحك؟

أرمقه:

- إيه، بروحي.

كشأني، كشأني معه، ليس لأنه غـــير موجـــود، بـــل لأنـــي - ببساطة - لا أريده.

- طيب ليش ما قلتي حق أبوك؟
- مالي خلق أحد.
- حبيبتي خذتي دوا؟
- بنادول.
- شربـــي ليمون وعسل..
- يمه ما فيني احتقان، بس حرارة.
- ما تدرين يمكن بداية انفلونـــزا.
- زين..
- وإذا طول معاك، حطي تفاحة بالفرن وإكليها بالقفشة لمـــا تلين.. خليها تليّن بلعومك.

- يمه خلاص ما فيني شي.
- شلون أبوك؟
- أبوي زين..

أرمقه بطرف عيني، لا أحد يسأل عن هذا السعيد، المتقن، الـــ..

- ذاك اليوم كنت أتمشى في "عبدون مول"، لقيت دراعـــات أردنية حلوة، صناعة يدوية، الوحدة بثمانين أردني، رخـــاص مو؟ كنت بشتري لك وحدة.. بس نسيت كم مقاسك.
- يمه مابـــي دراعة، مابـــي شي.

وأتمنى أن أرمي بهذا الاختراع المدهش بعيداً، لتتقلص الأصـــوات في العالم، والفضول والاقتحام المؤلم والأسماء و.. الحب الذي يجيء متأخراً.

- شفيك أسماء؟ قاعدة تبكين؟

أنشجُ:

- يمه تعالي! متى بترجعين؟
- يمه خالك ما خلص دورته، باقي له شهرين..

أنوح كطفلة مفجوعة:

- يمه ليش رحتي معاه وخليتيني؟
- حبيبتي إنتي تعرفين.. إنتي مو صغيرة.

أجأر:

- خلاص تعالي!
- ليش؟
- بس تعالي، أنا تعبانة.

لم أكن أتوسّل، كنت آمر.

- أسومة تصبّري شويْ.
- يمه تعالي أبوي يسأل عنك طول الوقت..

- شحقه يسأل عني؟ مو تارسين عينه "الثلاث"؟
- يمه إنتي محد ياخذ مكانك.
- ألحين يوم أخذ "الثلاث" صرت الغالية؟
- مادري عنه يمه، كيفه، تعالي عشاني أنا.
- شوفي.. قولي له أمي ما تبيك..
- يدري من غير ما أقولْ.
- قولي له خلهم ينفعونك..
- يدري يمه..
- وقولي له أمي متنازلة عن النفقة..
- يدري يمه..
- بس عاد هاه، إنتي لا تنسين حقوقك، إنتي بنت أبوك، والشقة إلي إنتي فيها.. حقك، زين؟
- زين يمه.. زينْ.
- عسى مو مقصر معاك بالفلوس؟
- لا مو ناقصني شي.
- عفية.. إنزين شخبار أبلتك إلي قلتي لي عنها؟

أرميه على الحائط - الاختراع المدهش في يدي - لتتقلص الأصوات، حضورها وغيابها، الأصوات البغيضة والمحببة، كلها مُتعِبة، كلّها..

يصرخُ، متفجّراً، منفجراً، كما لم يكن قط، كما لم يكن في يوم، العروقُ نافرةٌ من ساعديهِ، وأذناه حمراوان:

- إنتي شفيك؟! مينونة؟!

يحملُ الأجزاء المتكسّرة من الهاتف - الاختراع المدهش اللعين - ويلوّح بها:

- وبعدين معاك؟!

أذعر، هل أشعر بالحرج؟ هل أبالغ؟ سيبدأ الآن بإخباري بأن حياتي جميلة، وجديرة.. و..أنا ضحيّتي الأولى، و..

- وإنت من متى تصرّخ عليّ؟

- من ألحين، ولما تصيرين سنعة! تبين تطيرين عقلي معاك؟!

- شحادك؟ روح اطلع.. فكني منك شويْ!

....

....

.. آ!

....

....

أشتهي أن أرفع يدي لأدعك الألم، ولكنني أخبئ رأسي بين ذراعيّ وأجهش.

هل صفعني أسامة؟

3

عندما صرخَ، لأوّل مرة في حياته، قبل خمس دقائق.. سال خيطٌ من الدم من فتحة أنفه، فأسرع خارجاً، و لم أسمع صوت أي بابٍ آخر، يغلق أو يفتح. وأطفو..

.. إني أراني لفرطِ سعادتي.. جميلة! لا أفتأ أبتسمُ، أدورُ وأتأمل تنورتي تنتفخُ بفعل الريحِ، كان المدى مطوقاً بالجبالِ، وكانت الجبالُ تصنعُ باقة، يربطها خيطٌ من الماء، أنا هناك، أرتدي قميصاً أو يكادُ، شعري طويل، أضحكُ.. أضحكُ، وتنتأ من جلدي فقاعات ضحك، أضربها بطرف إصبعي، تنفجر.. تتفجر في المكان ضحكات رنانة، أضحك، ويسرّ لي الماء (اجمعي ضحكاتك في جيبك)، والفقاعات تتسرّب مني، وأضحك.. و..

.. أراهُ، واضعاً منشفة رطبة على أنفه، واقفاً أمامي بصمت.

أشهق من المفاجأة:

- بسم الله..
- نميّ؟
- إيه.
- حلميّ؟
- إيه.

يتصرّف وكأنه عرّافٌ أو ما شابه!

- أسماء.

أشيح بوجهي عنه، من المفروض أنني غاضبة، من المفروض أنني موجوعة من صفعته، ولكنني - عوضاً عن ذلك - أشعر براحة غير مبررة.

- ترى إنتِي السبب.

أطرقُ برأسي، كأنني أسمعُه يتكلم هكذا طوال الوقتْ، رغم أنها المرة الأولى، الأولى التي.. التي.. إنه يواجهني هذه المرة، يرفضني، يقفُ أمامي متعامداً مع جسدي الممدد، أبياً مثل نخلة، حانياً مثل نخلة، قاسياً مثل نخلة، إنه يضع لي حداً، يعرض عليّ أخطائي، إنه.. يريحني، يريحني جداً، يطهرني مني، يخرجني من رجسِ الحقد الصامتِ والسؤال:

- تدرين شالمشكلة؟

- ؟

- احنا نحب البعيد.

أهز رأسي، وكأنني أفهمه، وكأنني أعرفه، وكأنني أوافقه، أهز رأسي أن نعمْ، أهز رأسي وأنصت لأول مرة، أسمع الأشياء التي يقولها، وأراهُ.. دون أن أنزعج من جمال عينيه، وبهاء طلّته، أراه هكذا قوياً مثل الشيء الوحيد الراسخِ في حياتي و.. أراهُ، وأنا لفرطِ العادة كدتُ أفقد القدرة على تمييزه في المكان، كدتُ أفقد إحساسي بنا، أحياء وتحت سقف واحد.. يقول الحقيقة، الحقيقة دائماً، أسامة لا يقول إلا الحقيقة، نحنُ نحبّ البعيد، نحبّ الآخر، نسخر منهم عندما يلقوننا "اعرف ذاتك" طالما أننا نبدأ في تحسس وجوهٍ تشبه التوابيت في المرايا و.. لم نتفاهم هكذا منذ.. منذ الأزل!

- أسماء إنتِي ليش مو شايفتني؟

لفرط ما أنتَ قريب، لفرط ما أنت شقيقي، لفرط ما أنت هنا..

4

الأشياء لم تعد تحدث، إنه وقتٌ مثالي ليموت المرء ويعتبر موته مفاجأة، ويسمي الوقت "غشاشاً" لأنه ينسلّ من بين أصابعه دون أن يحدث..

وسمية تواكبُ المستجدات، زوجة أب على الموضة، لم تعد تطلب مني، صارت تأمرني، الأوامر تشعرني بالأمان، مثل قضبانٍ خشبية لسريرِ طفل، تقول.. سنذهب إلى عرس، أهزّ رأسي، أترك لها القيادة ولا أتمتع بالرحلة، القرار هو ملك لشخص آخر، لاسيما في أمر مصيريّ بمنزلة الذهاب إلى عرس، لأن الأعراس هنا ليست مجرد حفلاتِ زفاف، وأنا، بتسريحة الشعر المهولةِ هذه، الشعر الصناعي الذي عكصوه لكي يدشنوا فوق رأسي عش غراب، والظلال الزرقاء فوق عينيّ، وأحمر الشفاه الفوشيا الفاقع، أشبه لطخة من الرّعب الملّون، أشبه مهرجاً باكياً.

حفلات الزفاف هنا ليست مجرد حفلات زفاف، يقولون - بكلماتهم الكبيرة، المزخرفة - بأنها ظاهرة اجتماعية، هكذا فقط: ظاهرة اجتماعية، وبقدر ما تبدو الكلمات الكبيرة مجوفة، بقدر ما هو المكانُ معبأ بالألوان والعطور والعرق والبخورو.. كل واحدة من بين المدعوات المئات ذهبت اليوم إلى صالونها المفضل، وضعت مساحيقها وسرحت شعرها وارتدت ثوباً لا يستر إلا ليكشف، ولا يخفي إلا ليظهر.. وجاءت إلى هنا لأجل أن *ترقص*، يقولون - في أنفسهم - بأنهم جاءوا لأجل أن يشاركوا أهل العرس فرحهم، يقولون - في

أنفسهم - بأنهم جاءوا لأجل تأدية الواجب، لأجل التزامٍ أخلاقي تجاه أهل الحفل، يقولون - في أنفسهم - أشياء كثيرة، ولكن من هنا، من الزاوية الأكثر هامشية في القاعةِ، يصبح كل شيء مكشوفاً أمام الأجساد وهي تتزاحم في مساحة ضيقة كهذه! كل هؤلاء، جاءوا إلى هنا لأجل أن يرقصوا، كل هؤلاء يعرفون بأن الرقص هو السبب ولا يعترفون بذلك، ويبدون في غياهب ارتجاجهم عراة الروح، جاءوا إلى هنا لأجل أن يختبروا الرقص، لأجل أن يبعثوا في دواخلكم اللغة المنسية، اللغة السرّية التي يتخاطرون عبرها مع الكون بأسره، لأجل أن يكونوا في الوجود.

تقول الكلمات الكبيرة/ المجوّفة.. بأن الأعراس ظاهرة اجتماعية تتكشف من خلالها عادات الناس في الكرم والبذخ والبخل والفضول والمراقبة، ولكن ثمة ما يتجاوز كل هذا، الرّقص؟ شيءٌ يبعث بهم جميعاً إلى الجرف، ليختبروا الرعب، ليعودوا إلى الحُب، سيقول البعض بأن الأعراس ظواهر اجتماعية مصممة لكي تتعرف الحماوات على كنّات المستقبل، لأجل أن تحدّق كل عجوزٍ بما يكفي من الأذرع والأفخاذ والأرداف فتختار لابنها..

وسمية تلكزني! تريدُني أن أرقص، أن أرقص رقصاً مشوّهاً، لأنها لا تريد أن أرقص بقدر ما تريد أن أُرى، أهز رأسي نفياً.. الرّقص نداء الآتي، الرقص يخبرك عما ينبغي أن تكون عليه، الرّقص كشف، الرقص بخور وألوان وعطور وأجساد وحماوات المستقبل و..

وسمية راضية عن مشيي السخيف بطول القاعة، تصفق لي، بكل دجل العالم، تصفق للمهرجة زيفها.

5

أقطع الأرض طولاً وعرضاً، أرقصُ طولاً وعرضاً، قوائمي تستطيل وأطرافي تنحل وقامتي تعلو، أقطعُ الأرض رقصاً، أرقصُ، شعري يطولُ ويكنسُ الرّمل، شعري زيتٌ مسكوب وعيني قطرتيّ عسل، أرقصُ وأرى فيّ طقوس التحوّل والصوتُ يخبرني "قولي أحبّ، قولي أريد" ، أريد، أريدني جميلة، أريدني فتيّة وندّية، قامتي تستطيل وأطرافي تنحل وخصري يستدقّ و.. أريد، أريدني جميلة، أنا جميلة، الجمال إرادتي، الجمال اختياري..

يده تهز كتفي، أفقتُ

وجهه يملأ عينيّ:

- قوميْ؟

- وبعدين معاك!

- باركي لي أسومْ.

يهزّني من كتفيّ، يرجني رجاً وأنا أتمايل بين يديهِ خفيفةً:

- بس عاذْ!

- باركي لي أقوللكْ.

- ش عليه؟

- قسّمت معدتي.

- هه؟

- ست مربّعات، شوفي: Six Packs!

دفنت رأسي بالوسادة، اللعنة على كل أسباب الاستيقاظ، علـــى كل الحيوات الجميلة التي لا تجيء إلا متعذرة، لا تجيء إلا مستعصية، لا تجيء إلا مستحيلة و.. يرفع قميصه إلى أعلى ويكشف بطنــه، ســـتّ مربّعات بالضبط، من غير تمدّل ومن غير سوء.

- مبروك

- عجبتك؟

يصنع حلقة بيديه فتنتأ عضلات ذراعيهِ أمام المرايا، ياللغبطة الـــتي تسكن جسده.

الموسيقى..

شاشة الموبايل: "أبلة حصة يتّصل بك".

- لا تردّين.

يقول..

قلبـــي يخفق.

- كيفي!

أقول..

قلبـــي ينقبض.

- ألو؟

- (بكاء خافت).

- ألو؟

قلبـــي يغوص.

- أبله حصة؟

- ايه.

صوت مبحوح، مريض، تذوب فيه كل آلام الدنيا، وأصبحُ أنا - فجأة - مسئولة عن.. هذا الألم؟

- شلونك أبله؟
- (نشقات أنف).
- فيك شي؟

صوتي مرسوم بدقة، لا يعلو ولا يهبط، صوتي أشبه بصوتٍ مسجّل للترحيب بالمتصلين.

- أسماء أنا دائقة بخصوص إلي صارْ.
- مافيه داعي، أنا ما كان لازم أصلاً..
- أنا حبّيت الفكرة.

لا تقاطعني، بل تقطعني في المنتصف تماماً، في تمام الرغبة في التملص والانسلال خارج المشاريع الحمقاء و.. إنها تشبع غروري قليلاً لترضيني، وأستحيب:

- فكرة الكتاب؟
- ايه، وايد حبيتها، عشت معاها، حلمت فيها.. ما تصدقين شكثر، ولما شفت.. شفت المسودة، نسيت إنها مسودة.. بس.. ما كان لازم أنفعل، لأنها في النهاية مسودة، صح؟
- ما صار شي أبله وأنا صرفت النظر..

شهوة التملص، شهوة النكوص، شهوة العودة إلى المجاري القديمة، شهوة أن أستدرّ منها المزيد من النفخ العشوائيّ في شخصي، شخصي الهزيل.

- أسماء إذا إنتي تعزيني مثل أوّل خلينا نكمّل.. أنا وايد حابة شغلنا، وشوي شوي راح نوصل لصيغة ترضي كل واحدة فينا، صح؟
- صح.

إنها بداية أخرى، بداية أقررها أنا هذه المرة، لا هيَ، وكم هو ملذّ الــ..

- أشوفك باكر؟
- تم، بس مو في المدرسة.
- وين عيل؟
- ما أقدر أدخل المدرسة عقب ما شافنا الكل وإنتي تصرخين..

تقاطعني بسرعة:

- ايه طبعاً! معاك حق، بس وين نلتقي؟
- في بيتك أبله.
- في بيتي؟
- ايهْ.
- ..

تبدو مرعوبة من الفكرة أكثر منها منــزعجة، أفرضُ وجــودي فيها فرضاً، أبرّر بخبث:

- عشان أكتب الكتاب لازم أرصد بيئتك، لازم أعرفك عدل.
- آها..

إنها لا تتفق ولا تختلف، تبدو.. متفاجئة بــي قليلاً؟

- باكر الساعة 7؟
- زين.
- مع السلامة.

هل قرّرتُ لتوّي شيئاً؟ هل دشنتُ قانوناً؟ كيف حدثت الأشياء بهذه السرعة؟ أنا أريد، أقولُ أريد، أقرّر، جسدي يتضخم ويملأ المكان. لماذا لم أرفض؟ ما زالت الفكرة قائمة، ما زال الحلمُ هنا، في بيتــها، في وكر العرافة بوسع فضولية مثلي أن تعرف وصفات جميــع العقــاقير

السحرية، التي تجعل مني فتاة جميلة بشعرٍ كالزيت وعينٍ كالعسـل، في بيتها، أستطيع أن أرصد كل شيء، أفكّك كل شيء، أفهم كل شيء، أستطيع أن أخرج مني وألبس جلدها بسـهولة، سـأعرفُ، نعـم.. سأعرف!

- إنتي هدمتي كل شي.

يباغتني صوته. قلبـي ينقبض.

- مو شغلك.

- إيه.

يضيف: هذا شغلك إنتي.

يخرج، يصفع الباب، ترى..

متى يعود؟

6

كان الباب يصرّ بشكلٍ معدني مزعج بسبب احتكاك الألومنيوم بالبلاطِ الرخامي، المكان شاحب الملامح، ليس أكثر من شجرة اصطناعية، بلاستيكية، *غير أصيلة*، في الزاوية إلى جانب الدرج الذي صعدناه مسرعتين وكأنها تخافُ أن أُرى في هذا المكان من قبل أشباحها، تبعتها إلى ممر طويل، أبواب موزعة على الجانبين، مقفلة وصامتة كقبور، دخلنا آخرها، فتحت الباب على مهل، غمرت أنفي رائحة مزيج من بودرة الأطفال و"فيكس".

الغرفة عادية، عادية بشكلٍ جميل، السجادة - على خلاف المتوقع - زرقاء، والستائر تمزج بين الأصفر الشاحب والأزرق، غطاء السرير أبيض، قطع الأثاث أمريكية الصنع، قدت من خشبٍ باهت اللون، وعلى منضدة التسريح عثرتُ على زجاجيّ عطر وعلبة بودرة بيبي جونسون وقلم أحمر شفاه ومشط.. وتبادر إلى ذهني فوراً أن أطلّ أسفل السرير، أن أباغت الكائنات الغريبة التي تتحرك في الظل، الدمى التي ترقص والمصابيح السحرية والريش وصندوقها السّريّ و..

- شتسوين؟!

سؤالها، استنكار مرتعب..

- أدوّر صندوقك.

- أي صندوق؟

- صندوق الأسرارْ.

ورائحة الأزهار والأزرار الملونة والقصاصات و..

- صندوق الأسرارْ؟

هل تتملص من حقيقة أم تتظاهر بالغباء؟ أصرّ عليها:

- مرة سولفتِي لي عنّه.

- آه، الصندوق!

وكأنه لم يكن يوماً شيئاً بذات الأهمية، بذات الحضور، منحناه ساعتين من الكتابة، وأصر:

- وينه؟

تجلسُ، تخلع حجابها، شعرها كستنائي قصير، لماذا ظننت طوال حياتي بأن لها شعراً أطول من نخلة؟ بدأت تدعك فروة رأسها بأصابعها وتنبش شعرها.

- أبله وين الصندوق؟

- قطّيته من زمان.

- قطيتيه؟

أبهتُ، الأرض هشة تحت قدميّ و.. كيف؟ كيف تستطيع أن تجعلني أؤمن ثم تأخذ مني إيماني؟ كيف تستطيع أن تأخذ مني شيئاً بهذه الخصوصة، حلمتُ به وتخيلته وشممته في خيالي، بهذه البساطة المرعبة؟ كيف تستطيع أن تتكلم بهذه الشاعرية عن ذكرى ميتة بالنسبة لها وتتصرّف كما لو أنها.. حية تزاحمها المكان؟ كيف تستطيع أن ترمي شيئاً كان بهذه القيمة بالنسبة لها، وتتكلم عنه - خارج الأوراق الملونة - على أنه مجرد هرطقة طفولة، في حين.. أي زيفٍ هذا؟ أي فصام؟ أي دجل؟ أي..

- حر الجوّ فظيعْ!

إنها لا تشبه نفسها، لا تشبه نفسها في خيالي، أينا المخطئ؟ خيالي أم نفسها؟ إنها حتى لا تنتبه إلى عينيّ، المشدوهة/ المشدودة عميقاً صوب عينيها، المتخاذلة، الهاربة، الـــ..

- استريحي.

ليست معجبة بالفكرة، تحاول أن تكون لطيفة، من غير المريح أن يدخل شخصٌ غرفتها ليكتشف "عاديّتها"، مزعج أن تتقلص المسافة الفاصلة بينها وبين الآخر، والغموض الذي تسبغه على كل ما يخصها لأجل أن تظل جديرة بالاحترام. أ لهذا السبب تحتاجني؟

أجلسُ على طرفِ السرير، أراها تمشط شعرها، أميرة بشعرٍ قصير، أميرةٌ بشعرٍ قصير.. ردّدتُ في داخلي و.. لم تلائمني الفكرة.

- شخبارك أسومة؟

- بخير الحمدلله.

- أمك شلونها؟

- تسأل عنّك.

- الله يسلمها، هاه.. شخباركم؟

ما بها؟ هل تحاول أن تقول بأنها تهتمّ بشأني؟ بأن اللقاءات التي استمرت طوال ما يربوا عن الشهرين لم تكن تصبّ في تمجيد أناها المتورّمة وحسب، وأن ثمة شيء وراء ذلك كله، أنا؟ تواصلنا الإنساني؟ "العيش والملح"؟ بسالتي النادرة في البقاء ضمن زمرة مريديها من البنيّات اللاتي أكبرهنّ بعشرة أعوام؟ تشبث يائس بالأمس؟

- أبله حصة ممكن أسئلك سؤال؟

- سئلي أسومة حبيبتي.

- ليش ما تزوجتي لما ألحين؟

ابتسمت، وكأنها تضحك من تفاهة سؤالي.

- شالطاري؟
- لا بس، ياني خاطِب قبل فترة، ومتردّدة، وقلت أدردش معاك بموضوع الزواج، ودي أعرف وجهة نظرك.

تجلس على طرف السرير، تنظر إليّ، إلى الضفدعة في وجهي، أتمنى أن أخفي ملامحي داخل قبر.. إنها تنظر إليّ بلا رحمة. تبتسمُ..

- مبروك!

أي خبث؟

أسارع إلى التبرير:

- أبله ترى ما صار شي، حتى ما شفته، بس شافتني أمه قبل يومين، آاه.. في بيت خالتي وسمية، زارتنا، و..
- وافقوا؟
- لا، ليلحين ما اتصلوا.

ولكنني لا أشعر بكثيرٍ من العارْ، كما توشوش لي عينيها، أحاولُ أن أوحد بيننا أكثر، أماهي بيننا أكثر، التشابه، التشابه الذي أريد:

- إنتي ليش ما تزوجتي أبله؟ ما قط حبيتي؟

ويبدو السؤال الساذج الممعن في الخبث مبرراً هنا، آمناً تحت مظلة الكتاب الحُلم، يتغيّر وجهها، أحبّ الوجوه عندما تتغيّر!

- شهالسؤال أسومة؟ أكو إنسان في الدنيا ما يحب؟
- يعني حبيتي؟
- طبعاً حبيت.
- وليش ما تزوجتي؟
- ناطرة الظروف تصير أحسنْ.
- والله؟

أهت أمامها، يتحول العار من إمكانية إلى حقيقة، هـي تنتظـر الظروف، وأنا.. أنا محض متروكة، هي مقبلة على الحياة، على الحب، على الارتباط، رغم كل الصيغ المفروضة علينا، كـل القتـل العامـد لاحتمالات الحب الهاربة، لإمكانية حياة تتحرك خارج نواميس العائلة، خارج برواز التقاليد، إنها تنفي عنها كل هذا، إنهـا ليسـت بـذات الرفض، ولا بذات الحساسية، وهي لم تتزوج ليس لأنها لا تريد رجلاً يفرض هيمنته الذكورية على عالمها الناعم، ولا لأن أميراً وسيماً لـن يكون كافياً، ولا لأن آلية اختيار الشريك في الوطن مجحفة وقاتلة، ولا لأنها كاملة، غير محتاجة إلى رجل، قوية ومنيعة مثل حصن.. ولا.. لماذا يبدو من قبيل الدهشة، أنها راغبة بالزواج؟ وكأن كونها عزبـاء كـان يدعم خصوصيتها في عينيّ، كان يفاقم كونها استثناءً نسائياً مدهشـاً؟ تتأمل دهشتي، تبتسمُ، وتبدو متورّطة قليلا..

- بقرا لك شي كتبته عنّه.

- أوكيه.

ورغم جزعي منها أمتثل، أتربّع فوق السرير، تفتح أحد أدراجها وتخرجُ ورقة بيضاء، ولكن لماذا بيضاء هذه المرّة؟

تقرأ:

ولأنني منذُك، وحتى أنتْ..
أؤمنُ بالضوءِ والزهر والماء
لا أكره أن أتذكّر
لا أخافُ من الظلامْ
آلف الضجيج والطرقات
وصنع بيوتِ الرملِ
ولا أخافُ..

الأطفال الذين لا يخافون
والأرامل البكاءات
لأنني منذك، وحق آخرك
أحبّ العالم
والعالم بدورهِ
يحبّني

صمتت، و لم تنظر إليّ، هتفتُ:

- أبله منو هذا؟
- حبيبـــي!

إنها تلفظ الكلمة المحرّمة، تلفظ كلمة "حبيبـــي".. بأريحية! هــل هذا هو السرّ؟ هل عندها حبيب تواعده على الشرفة وتلقي له بالمناديل العطرة؟ هل تجنحُ مع رجلٍ استثنائي آخر خارج خارطة المدن الباهتة، وتصنعٍ لنفسها فسحة للحب بالطريقة الأكثر أصالة؟ إنه الفرق الأكثر سطوعاً، إنها جميلة، وحياةٌ كهذه معها.. كم تبدو ممكنة!

- شسمه؟
- اسمه مو مهم.
- ليش مو مهم؟ إنتي تقولين..
- الأسماء تختارنا..
- ايه.
- بس اسمه سرْ.
- طيب ليش ما تتزوجينه؟
- بتزوّجه.
- متى؟
- بعد سنتين.

- ليش؟
- لأنه مسافر ياخذ الدكتوراه في الطب، وبس يرجع إن شاء الله بنتزوج.

أقرّب وجهي من وجهها، أسألها:

- أمّك تدري؟

تطلق ضحكة فارعة، أشعر على إثرها بسذاجة السؤال، تعقّب وهي تتنفس بصعوبة:

- طبعا تدري!
- ما قالت لك شلون عرفتيه؟
- أسماء شهالأسئلة؟

أعودُ إليّ للحظة، أتأمّل ما أفعله، أشعر بي سخيفة، لماذا أصرّ على العثور على معاناة استثنائية في حياتها؟

- يعني إنتي بتتزوجين!
- ايه.
- ومخطوبة!
- ايه بس مو خطبة رسمية، بس بين الأهلْ.

إنها لم تخبرني بذلك من قبل لأنها لا تريدُ الحبّ مادّة في سيرتها، ربما لفرط خصوبة المحتوي، أو لفرط عاديّته.. دكتوراه؟ وحبيب؟ وطبيب أيضاً؟ وأنا التي ظنّنت - طوال ذلك الوقت - بأنها ترفضُ الزواج عن سبق مبدأ، بأنها ببساطة: لا تريده، وبأنها تلعن الآلية الغبية التي يحدث وفقها و.. أو بأنها مرت بقصة حبٍ خائبة، توفي حبيبها أوأسر في حرب الخليج وأقسمت عند قبره أن لا تتزوج أبداً، أو أنها أجبرت من قبل أهلها على الزواج من شخص نجحت في الهروبِ منه لاحقاً وقبل أهلها بالأمر الواقع، أو أنها ببساطة لا تريد أن تتزوج، لا

تحتاج أن تتزوج، بأنها لا تريد ما هو أقلّ من الحرّية في أكثر أشـــكالها عفة..

- شتفكرين فيه؟
- فيك.
- فكري بنفسك، قولي لي عن طارق.
- ماعرفه.
- بس متقبلة الفكرة؟
- لا.
- ليش؟
- لأني ماعرفه.
- طيب شلون تحكمين عليه وإنتي ماتعرفينه؟
- شلون أتزوج شخص ولا عمري شفته بحياتي؟
- شوفيه وبعدين تزوجيه.
- إنتي شفتيه ولا بينكم قصة حب؟
- لا.. شفته.
- والله؟

تبتسم، أشعر بها تنفذ إلى رأسي.. وجهها الضحوك.

- مافيها شي أسماء قابليه، إنتي مو صغيـــرة..
- ماني قادرة أتقبل الفكرة.
- اعتبريه كهربائي بيصلح ثلاجتكم.

أضحك، تشاركني الضحك، تبدو جميلة..جميلة ورائقة.

- إنتي كبرتي أسماء، لازم تحطين اعتبار لفكرة الارتباط.

.. وأسمع - في ثنايا بحتها - صوت وسمية، أشعر بغثيانْ، معـــدتي تنقبض!

- المهم.

- ؟

- شرايك ألحين نبدي شغل وتنقيح؟

- زين.

تنهض، تخرج الأوراق الملونة من أحد أدراجها وتتربع على أرضية الغرفة، تشيرُ إليّ "تعالي" فأمتثل.. رغم أن قلبـــي لا يخفق.

7

.. هذا ما نفعله منذ ساعتين: ندشن مسافة كاذبة بين النصّ الذي كتبته والراوي.

"كنتُ جميلة" تتحول إلى "كانت جميلة"، "كنتُ أحب العصافير" تتحول إلى "كانت تحب العصافير"، وتطييباً لخاطري كانت تسأل أحياناً، بما من شأنه أن يوهمني بأنني شريكة في الكتابة، شريكة في الوجود:

- مو عاجبتني هالجملة، شرايك؟
- أي جملة؟
- .. التي تجعلني أعطس.
- حلوة العبارة، دمها خفيف.
- يعني إنتي شايفة جذي؟
- ايه.
- خلاص، على رأيك "يا ستّي".

تبتسم، أبتسم.. أشعر بالزيف، بالغثيان.

- طيب شرايك، أقول سحابة أيلول ولا سحابة سبتمبر؟
- نفس الشي.
- بس بالكويت سبتمبر دارجة أكثر.
- أيلول شاعرية أكثر.
- إنتي شايفة جذي؟

- ايه.
- خلاص، على رأيك يا..

ولكن لماذا كان عليها أن تجتمع بـــي لأجل أن تسبغ على النص صفة الغائب؟ لماذا الغائب؟ لماذا أنا؟ في أي شيءٍ تحتاجني؟

هل هو الوفاء لفكرة ابتدعتها أنا؟ أم..

- أسومة؟
- هلا.
- تقريباً خلصنا كل شي، باقي تعديلات بسيطة.

بعد ساعاتٍ من الـــ..

- بس..
- بس شنو أبله؟
- النص الأصلي راح يكون جزء ثاني من الكتاب.
- والجزء الأول شنو؟
- إنتي!
- أنا؟!

أي رعب؟ أي عقوبة؟ ألقي بالأوراق، أتـــركُ فمـــي مفتوحـــاً، متدلياً..لا! أصرخُ أو أتخيّل أنني أصرخ.

- شفيك اخترعتي؟
- أنا مابـــي أكتب عن نفسي!!
- ليش؟
- بس، مابـــي، مابـــي أكتب عن نفسي!

أدفع الأوراق، أدفع الأرض بساقيّ وأزحلق جسدي إلى الخلـــف خطوتين وأغطّي وجهي بين يديّ، أريد أن أبكي، كم أنا مفضوحة!

- أسماء شفيك؟

- ما راح أكتب شي عن نفسي.
- أوكيه خلاص، خلاص..

تنظر إليّ، مشدوهةً، الأوراق في يدها عالقة..

رغبة بالرّكض تنتابني.

- أنا ما أقصد كتبـــي عن نفسك.
- هاه عيل؟
- بالنسبة للقارئ، لازم تبررين اختيارك لـــ.. لي! كموضـــوع للكتاب، صح؟ يعني.. نقول مجرد تقديم.

آه! هل هذا هو السّبب؟

وأنا خلتُ إصرارها على وجودي وفاء لفكرةٍ ما كانت لتخطـــر لها بدوني؟ ولكن الحقيقة أنها تحتاجني، تحتـــاجني بقـــدر مـــا يحتـــاج الدكتاتوريون إلى المظلومين، بقدر ما تحتاج الحكومات إلى الشـــعوب، بقدر ما يحتاج الشاعر إلى القرّاء، بقدر ما يحتاج الطبيب إلى المـــريض، بقدر ما تحتاج الجميلة للعاشق، بقدر ما يحتاج المحامي للظلم، بقدر مـــا يحتاج كل هؤلاء إلى غيرهم ويوهموننا بالعكس.

هذا هو السبب، وأنا التي ظنّت منذ بداية المشروع بأنني المستفيد، أنا من ستكتب، أنا من ستبعث، أنا من ستموت، أنا من.. ســـتتغيّر، بقدر ما هو الأمر على العكس من ذلك، إنها تحتاج لمن يبرر وجودها، يشرح وجودها، يخبر العالم عن كونها اختياراً متميزاً وشخصـــية فـــذة وليست مجرد ثرثارة بأنا متضخمة، إنها تحتاجُ إلى تافهةٍ مثلـــي لكـــي تخبرها بأنها عظيمة، إنها - مثلي - أنانية جداً، باستثناء أنها لا تقـــدّرني إلا لكي تقدّر ذاتها و.. أنا غيابها الذي تحتاج، لأن الغائب دائما محترم، لأن الغائب قريبٌ من القلب، وأنا، ينبغي أن أحضر، أمثل، أتواجـــد، بأسمائي كلها، لأجل أن تغيبَ هي..

لماذا يحتاج أمثالها إلى الغياب؟ لماذا يسرق أمثالها الغياب من أمثالي، أمثالي البائسين قليلي الحظّ والجاذبية الذين يلعن الكونُ حراكهم وكل الطرق التي يسلكون؟ لماذا تزاحمني غيابي وتزجّ بي إلى الحضور لأجل أن أهبها غياباً أكثر عظمة، وحضوراً أكثر مجداً، الشيء الذي أردته، أنا، تماديتُ وأردتهُ ولكن.. أردتُ أن أغيّر حياتي، لماذا سترغب هي بلعبةٍ مماثلة؟ أليست - ببساطة - تملك كل شيء؟ ماذا ينغص عليها هذا الكمال لكي ترغب بالغياب، أم تراها الرغبة بكمالٍ أكمل؟ الشراهة؟ الجشع؟ الرغبة بتحويل العالم- بكلمتين - إلى غرفة صف حيث تتحلق البنيات حول الجنية الطيبة ويرددن في دواخلهن "ما أجملها"؟

ماذا عني أنا؟ ماذا أنال؟ "السبق" الضوئي المسلّط على وجهها؟ ألا تكتفي - هذه الشرهة - لكي تضاعف حضورها بالغيابِ، وتضاعف غيابي بالحضور، تزجّ بي في التواجد، ترغمني أن أجيء أنا، ناقصة بمعنى الكلمة، مقذوفة في العالم مثل بصقة، لأقول بأنها.. قدوتي في الحياة! شخصيتي المفضلة، النبي محمد وآينشتاين وأبله حصة! كم هذا ملائم، أقول بأنها ألهمتني طوال حياتي بأن ثمة عوالم فاتنة موجودة على بعد أرنبة أنف، على بعد أدمة جلد، عوالم سرانية وجميلة و.. لم أجد منها شيئاً هنا ولا حتى صندوق أسرار، بأنني حلمتُ بها لفرطِ ما هي بهيّة ونديّة وسعيدة وبعيدة، لفرطِ ما هي متعذرة وقصية في آخر المسافة، في آخر سبابة يشيرُ بها الطريق إلينا لنتبعه، تريدني الآن، تريدُ كائنا شائهاً وقليل الحظّ مثلي لكي يمجد كمالها، لكي أقول، ربما، بأنني عشتُ بلا حياة، وبأنها بفكرة كتابة الكتاب أعادت إليّ الحياة وسمحت لي بأن أكون جزءاً من عالمها، أبجورة مثلاً، أو علاقة مفاتيح! أو.. أو مكعب مرق دجاج! أو أقول

بأنني كنتُ أبكي طوال الليل لمدة عشر سنوات حتى أعادت إليّ المقدرة على الابتسام وأرشدتي إلى طريق السعادة، أي طريق؟ لماذا أنا هنا إذاً، أهتك، أتعفن مثل خبزة في الظلام، لكي أشير إلى نضارتها وصحتها وجمال غمازيتها، لماذا سحرني حضورها إلى هذا الحد؟ ماذا كان السر؟ لأنها تبدو مختلفة فيما هي على خلاف ذلك؟ لأن غرفة نومها عادية جداً، وعوالمها مرتبة جداً، وحياتها محددة جداً، وليس أكثر من سنتين لكي تتزوج دكتوراً لم تقابله قط وتسمّيه حبيبي وتكتب فيه قصائد مرهفة و..

هذا المكان، لماذا لا يخبرني عن الأشياء التي كانت تقولها؟ لماذا لا يشي بأي ذرة من خصوصية، عن عادات غريبة، أو طبائع، تشيرُ إليها طوال الوقت؟ لماذا يبدو كل شيء هنا باهتاً، ولماذا هي - في هذا المكان الباهت - تبدو سعيدة، وكأنها ترى أشياء لا يراها الناس، وتسمع أشياء لا يسمع بها الناس، وتحدس بأشياء لا يحدس بها الناس و..

كانت تحدسُ بي! كلما اقتربت من باب غرفة الصف كانت تناديني، باسمي، بصوتها الذي يشبه الهديل، كيف كانت تعرفُ بأنني واقفة على الباب وهي لم..

- شلون؟
- شنو إلي شلون؟

أزدردُ ريقي، ألقي السؤال الحائر القديم، سؤالٌ عمره عشر سنوات ربما؟

- شلون كنتي تعرفين إني واقفة عن باب الغرفة وإنتي مكتبك مو مواجه الباب..

هيا قوليها: "سحر".

أخبرني بأنك ساحرة، أخرجي عصاك السحرية مـــن جلبابـــكِ الواسع، أخبريني بأنني لم أكن واهمة، أخبريني بأنك مختلفة، بأنك لستِ امرأة عادية تعيش في مكانٍ عاديّ، أخبريني بأن كل ما أراه ليس سوى غشاوة تفتعلينها لكي تبقي أكثر عوالمك سرانية وسحراً متعذرة عـــن المتطفلين أمثالي، أخبريني بأنك التي أعرفُ في أحلامي، بأنك جـــديرة بأن أخرج مني وأكونكِ، أخبريني بأنك شيء آخر..

- ما لاحظتِ المراية إلي قبال الباب؟

يااااه

8

أتضاعف، أتكاثر، المزيد مني، الكثير مني، في كل مكان أنا، تحت الحجر، بين القواقع، على البحر، الكثيرُ مني، نسخٌ لا نهائيــة، تحــدّق وحسب، أقول لي/ أنا التي في جانبــي، بأنني متعبة وبأن البحرَ غريب، تقول لي/ أنا التي على جانبها، بأنني مرتاحة والطقس جميل، أتشظى، لا أعرفني، في عالم المرايا، أنا عديدة، أنا في كل مكان، أنا المكان.

أغطّي وجهي لأن الوقت يسيلُ من فوق رأسي ومن تحت قدميّ، الوقت يتبخر، أضيعُ في المحو، أغيبُ.. (زامور مزعج).. أعرجُ يمينـــاً، أوقف السيارة، معصورةً روحي في دمعةٍ وحيدة وأنــواتٍ لا تنتــهي، البحرُ غريب، الطقسُ.. أميل على المقودِ، أتخفف، أتحّــرر، أخــرج، أصعدُ، أراني في الأسفلِ، أراني في الأعلى، (زامور مزعج).. أســتيقظ، ألعن، أفكّ أزرار ياقتي، أرخي حجابــي، أميل برأسي على المقــودِ، أغمضُ، أغيبُ، أكونُ، أبعثُ، أتجسّدُ: شعري الزّيت، عيني العســل، حقل بطاطا.. حقل بطاطا، قالوا، ابحثي عن أكبر بطاطا، الرجال السمر يحاصرون المكان ويبعثون الراحة، الرجال السمر اللطفاء، مثل قضــبانٍ خشبية لسريرِ طفل، حقول بطاطا، يجب أن تكون البطاطا كبيرة، أحبو ببطء، أفتش، أتشمّم المكان، أتحسس الملامح، أنبشُ، أحتاج واحــدة أكبر، بطاطا أكبر، أدفعني أماماً، أحفرُ، أنبشُ، أتشمّم.. ليس هذا هــو المكان، أحبو، مزيداً من الحبو، حبو مقدّس، مزيدٌ من المضــيّ، شــتلة بطاطا عملاقة، شتلة كبيرة جداً، هذه هيَ، لا أخرى غيرهــا، إنهــا..

أنبشُ، كبيرة.. أحفرُ، أظفاري في عروقِ الأرضِ، التربةُ تباركني، الطينُ يتمسح بـــي، الطينُ فيّ وعليّ وبـــي، هذا رأســـها، رأســـها.. رأس البطاطا، أحفرُ، عميقاً، أنتزعها، خارجاً، أقذفُها بعيداً، أصرخ!

هذه ليست بطاطا.. إنها رأسٌ، رأسُ..

- أسّوم!

9

ثمة شيءٌ غير صحيح، غير صحيح! لا ينبغي أن يكـــون أســـامة هناك، شعري زيت وعيني عسل فمن أين أتى أسامة؟

هذا ليس حلماً، إنه معراج، إنه حياة سرية، من أين أتى أســـامة؟ من أين نفذ إلى ذلك المكان؟ أسامة لا يظهر إلا في أحلامي وهذا ليس حلماً، إنه الشيء الوحيد الأكيد في حياتي فكيف استطاع أن يكـــون هناك بوجهه الذي هنا؟ وكيف يمكنهُ أن يظهر هكـــذا - ببســـاطة - ليخبرني بأن هذا الرحيل الحميمُ ليس أكثر من ترّهاتٍ أخلقها؟ شعري زيتٌ وعيني عسلٌ و.. أسامة هناك، هل كنتُ أحلم؟ كيف استطاع أن يخرج من زمنه ويجيئني هناك؟ هل هذا، مجرد حلم؟

زامور مزعج. ليت الأصوات تخرس. أعصر روحي في دمعـــةٍ.. تعصرني روحي في دمعة. أشغل محرّك السيارة، العاشرة مساءً، لا أحد لي، ليوبخني، لو تأخرتُ خارج المنـــزل.. لا أحد لي، لو تأخرتُ داخل المنـــزل، لو اندثرت، لو غبتُ ولم أعد هنا و.. أبله حصة مدّعية! أبله حصة غشاشة، تكذب، تكذب حول كل شيء، تســـتخدمني لتـــدعم دجلها بغبائي، إنها عادية، مجرد عادية، مجرد أخرى من الحشد العـــاديّ الذي أنا منه وأصبّ فيه وأذوبُ فيه و.. لم يكن هناك صندوق أسرارْ، لم تكن رائحة غرفتها جميلة، لم تكن هناك كائنات تعطـــس في قـــاع الكأس، لم يكن هناك أحلامٌ تتحرك بأجسادِ حيواناتٍ أليفة، لم يكـــن هناك بساط سحري ولا وسادة سحرية ولا عصا سحرية.. ولا حـــتى

جورب سحري، لم يكن هناك سحر، لا شيء، إنها مجرد عادية، تكرّس فينا اليقين بكونها أخرى، بكونها مختلفة، بكونها ربيبة الكونية التي يبارك العالم خطوها، بأنها التي لو رشت ذرة ملحٍ زائدة في طبق لتدخلت ريحٌ وطردتها، إنها تثرثر وحسب، تجعلنا نحلمُ، تجعلنا نرى في أحلامنا حيواناتٍ ممكنة، ثمّ.. تنتأ وجوهٌ من هنا في مناماتنا الحميمة لتبدد كل شيء، لتزججها - بدورها - في العاديّة، في اللا دهشة، في اللا شيء، كانت تكذب، حتى شارع الخليج يكذب، والأبراج تكذب، كل شيء يكذب، حتى هذه الاستدارة كذابة، لا شيء هنا، مجرد أبيض يقتل البصر والقدرة على النفاذ إلى حقول البطاطا و.. أسامة، قال لي اكتبي عني، قال أنتِ تحبين البعيد وحسب، قال أنتِ لا تريني لفرطِ ما أنا هنا، أسامة قال كل شيء ثم جاءني رأساً مدفوناً تحت شتلة، مبعوثاً من الرّملِ مغمضاً ومنفياً في القاع، لقد نفذ فيّ، رآني جميلة، شعري زيت وعيني عسل، ناداني كثيراً، خفق قلبي ولم أقفز، نادتني هيَ، تحرّك عقلي وقفزتُ، كانت سقطة موجعة، لو كتبتُ قصة أسامة، لو كنتُ أسامة؟

لو كتبتُ عنه كتاباً، لو قلتُ بأنه يحبّ الصباريات، ويقرأ البسطامي، ويتقن السباحة، ويعطر المناشف بالخزامي، ويبكي محتضناً قدميّ، ويحب "البلي ستيشن"، ويحب أن يحب، ويحب أن يريد، ويحب أن يختار، ويكون كما يحب وكما يريد وكما يختار، لو أفردتُ فصلاً عن ذكريات الطفولة ربما، لو دعّمتُ الكتاب بصورٍ من طفولتنا، لو.. لو كتبتُ مقدمةً عني، لو قلتُ بأن الطريق كان أمامي طوال الوقت ولم أره لفرطِ ما هو أمامي، لو قلتُ شيئاً مدوياً، مثل أنني أحبّه، لو قلتُ شيئاً كهذا؟ لو قلت بأنني أعرف، لو قلتُ بأنه يحبني؟ بأنه يجعلني أشعر بي جميلة وأحبني؟ أليس هناك الكثير لأقوله، الكثير لأتعلمه.. من هذا

الذي لا أراهُ، لفرط ما أنفه ملتصقٌ بأنفي؟! هل كان عليه أن يقفز إلى هناك، رأسُ بطاطا، لكي أعرفه؟

ينبغي أن أعود، أعود وأخبره بكل شيء، أعترفُ بكل شيء، إنه موسم الوضوء، موسم التطهر.

10

عندما فتحتُ الباب، كانت رائحة الشقة تشبه رائحة السردين، رغم أنني - وشقيقي - لا نحبّ السردين ولا نأكله..

- هلا هلا أسومة!

- يمه؟!

أبسمل، أنتفض، تبدو مثل كتلة فوضى مكتنزة، ممددة على الأريكة تمدّ رجليها وقد تورّمتا واحمرّ لونهما من فرطِ المشي.

- هلا عيوني.

أنحني إليها، أقبّل رأسها، أحاول مواراة جزعـ.. ي. هل أنتِ شبحٌ يا أمي؟

- متى رديتي؟

- توني من نص ساعة.

- وليش ما قلتي لي إنك رادة اليوم؟

- قالي خالك، قلت له لا بخليها مفاجأة أحسن، شرايك فيني؟

تبتسم وتظهر ذقنٌ ثانية أسفل ذقنها، وجهةٌ أبيضٌ مكتنز، بشوش، مضيء، حيْ.

- يمه إنتي على طول حلوة.

- يا قلبي إنتي، عيونك الحلوة!

- عيل وين خالي؟

- خليته، ترجاني أظل لما آخر الشهر قلت له معـــوزك، بـــنتي مريضة، بنتي فيها شي أنا حاسة، من كلمتـــيني ذاك اليـــوم وانقطع الخط وقلبـــي منعصر..

تضع يدها على جبيني، تتضاعف بشاشتها.

- مافي حرارة.
- مافيه يمه.

أجلسُ، أجولُ بنظراتي في المكان، أين ذهب؟

تسألني:

- شتدورين؟
- أسامة، ما شفتيه؟
- أسامة؟
- ايه، ما شفتيه؟
- منو؟
- أسامة، أسامة!

علائم مفاجأة، علائم رعب، تتأتئ، تتحشرج، يتحرك بؤبـــؤي عينيها إلى اليسار، تهيم، تفتعل ابتسامة، تهمس بحذر مرتعب:

- أي أسامة؟

أصرخ:

- أي أسامة يعني!

وأكثر:

- بذمتك هذا سؤال؟

تهمس:

- أسماء..

أصرخ:

- أكو أم تنسى ولدها؟

وبلوعة:

- أخوي التوأمْ!

همس:

- أخوك من أبوك؟

أصرخ:

- منك إنتِ!!

وبنشيج:

- إنتِ أمي، إنتِ أمنا يمه!

تلمع عينها، وكأنها تبكي، ترتجف يدها في زحفها الوئيد للقبض على يدي، تبسمل، تتلو آيات قرآنية، فيما هي دموعي كثيرة، كثيرة.

- أسومة.

- يمه وينه وين راح؟

- تعوذي من ابليس.

- يمه محتاجة أكلمه..

- قولي بسم الله..

- هو كان صح، كلامه صحْ!

- أسومة..

- مالي غيره!

- هدي نفسك شويْ.

- والله مالي غيره..

- سمعيني!

- إنتِ رحتي مع خالي، أبوي راح ويا حريمه، بس هو كان معاي! طول الوقت معاي!

- أسومة..
- ليش رحتوا كلكم؟ ليش خليتوني؟
- هدي أعصابك..
- كل واحد يفكر بنفسه..
- ذكري الله يمه..
- محد يفكر فيني أنا..
- لا تقولين جذي..
- أسامة بس يحبني.

أطرافي تتشنج، أقبض على أنفاسي بصعوبة، صدري يعلو، يهبط، يعلو، يهبط.. أرتطم بالتيه على وجهها، جسدها ينطفئ ببطء، يغيب. أين شقيقي؟

- أسماء.
- ؟

لماذا أبدو كمعتوهة؟

- سمعيني.
- مابـــي أسمع شي، أبـــي أخوي وينه؟!

تزدردُ ريقها:

- أنا صح كان في بطني توأم، بس الولد مات، كان ميّت، إنتي إلي عشتي..
- أسامة؟
- أبوك سمّاه أسامة.

وبلوعة:

- وصلى عليه.

ثمّ أخفت وجهها بين كفيها وبدأت تنشج.

11

تهريجْ.

أضحكُ، أضحكُ، أنتظر أن تنتأ رؤوس الفقاقيع من جلـــدي، ضحكات تحلق في الهواء وتعبئ العالم، الأمر لا يستغرقُ أكثر من العثور على صبارة! أو فك شفرة الخزامي في منشفة الحمام، أو.. المشط الذي يمسك به ويغني، غرفته.. لا يمكن أن يكون شيء أكثر حضوراً منه، لا يمكن أن يكون هناك ماهو أكثر محسوسة مـــن أخٍ تـــوأم، أضـــحكُ، دموعي.. كرات ضحك مائية، "أسماء إنتي بخيرْ؟" أين الصبارة؟ فـــوق الثلاجة؟ أمام نافذة المطبخ؟ أين الصبارة، هديـــة ميلادنـــا الســـادس والعشرين؟ "شتدورين عليه؟"

أنادي:

- أسوووووووووووووووومْ.

- ..

"حبيبتي؟".

- أسوووم يالبايخ عن اللعب.

أضحك، أي مقلبٍ هذا، أضحك..

"هدّي نفسك كل شي زين".

- أسوم بس عادْ!

"أسماء إنتي تتخيلين، مافي أحد بهالاسم".

- والله فيه.

- مافيه حبيبتي إنتي بس تعبانة..

أنشج:

- والله العظيم فيه!
- عندك له صورة؟
- ألبومنا.. ألبومنا واحنا صغار!

أنبشُ الأدراج، أين صوره؟ كلها صوري، أين وجهه؟!

- شلون شكله؟
- نخلة يمه، مثل النخلة!
- شلون يعني مثل النخلة؟
- طويل، وأبيض، ومملوح و..

أنشجُ، ما كان أجمل وجهه!

- عندك رقم تليفونه؟
- عندي!
- شنو الرقم؟
- 98.. آه.. 98.. آآه..
- نسيتي؟
- شلون أنسى؟ شلون أنسى يعني؟
- 98****
- ايه!
- هذا رقمك!

وبلوعة:

- لا، هذا رقمه، يمه إنتي مينونة؟
- حبيبتي إنتي متخيلة..
- سكتي!

- شنو سيارته؟ وين يشتغل؟
- آآه.. آآه!
- أحد شافه غيرك؟!

الصبارة!

أين الصبارة؟ كانت هنا، هل تكتسي الصباريات باللحم وتهربُ أم..؟

- إنني واهمة..

لماذا يصنع الإنسان وهماً يضاعف بؤسه، والتجمّد في المكانِ و.. لو كان وهماً، لماذا زجّ بـي في النقص والشلل؟ لماذا يذكرني - الوهم - طوال الوقتِ بأنني أقل؟ بأنني.. خبزة متعفنة أم.. كان يريدني أن أتذكر؟ "يا حلوك أسومة يا بخت إلي بياخذك" يقول، "أسومة إنتي ليش مو شايفتني" يقول، "أنا كلي لك" يقول، ماذا.. كان يريد؟ أن أستيقظ؟ أريد؟ ماذا كان يريد، أحب؟ أبتسم؟

- أسامة!!

.. وأعرفُ بأنك تأتي فجأة، بأنك لا تأتي إلا فجأة، بأنك تتحرك بدون صوت، تأكل بدون صوت، تنام بدون صوت، أعرفُ بأنك.. تترك فمك نصف مفتوح عندما تنام، وبأنك تستلذ بدعك الشامبو بين يديك، وبأنك تحب البوظة العربية، و"قعدي أسماء ولا بنادي أبوك"، لماذا تقبض على يدي بهذا الشّكل؟ أفلتُ، أدفعها، أدفعها خارجي مثل دمعةٍ عملاقة..

- أسامة بكتب عنك كتاب.

وسأكونُ هناك، في الكتاب، سأكون تلك التوأم.. سـ..

12

ثوبـــي أخضرٌ طويل، يزحفُ خلفي ويزحفُ أمــامي، يمســح الطريق، يفسحُ الخطى، يتركني أمضي حيث العنب والتفاح.. حيــث أفنى في الضوء، حيث الضوءُ يفنى فيّ، العيونُ في كل مكان، تحملق، لا أجساد، عيونٌ وحسب، قالوا "الشهداء على الغيب"، أجلس، تحــت عرائش العنب، فوق عرائش العنب، فوق نسمةٍ.. أجلس، يتحلقــون حولي، شعري يسيل على كتفي الأيمن، أدلّي عنقي، عروس المطرْ أنا..

خطواتٍ.. أرفع رأسي، أراني، عينان جاحظتان، ذقنٌ ملقوقة، سمراء، قصيرة، دميمة، أراني.. أقتربُ، الفأس في يدي، أدلّي رأسي لي، أبتسمُ لي، أبادلني الابتسام، أطأطئ، أقتربُ، العالم يتقوّض، العالم عنقي الممدودة و..

أدقّ عنقي!

تبكي الأرض، تضحك السماء، تبكي السماء، تضـــحك الأرض، أعلو، أعلو، في الأسفل أنا، ذقن ملقوقة تلوّح، في الأعلى أنا، شـــعري زيتٌ وعيني عسلٌ، سيأتي المطر، أعلو، الضوءُ مني، النورُ أنا، الغيمُ أنـــا، العشبُ أنا، الدم أنا، المطرُ أنا، أجيءُ، أجيءُ وجهه، يناديني، أناديه، اسمنا واحد "أسّوم"، أسّوم، أسّوم، اسمي جميل، اسمه جميـــل، اســـمٌ جميـــل، نتلامسُ في أطراق الأصابع، نتداخل في أطرافِ الأصابعِ، نتماهى، نفنى، نمحى، أسمعه/ أسمعني، "أنتِ جميلة قلتُ، "أنا جميلة" قالَ، "جميلة" قلنا..

نيسان – آب 2005

بثينة العيسى

المؤلفة

بثينة وائل العيسى

- مواليد 3 سبتمبر 1982.
- حاصلة على شهادة الماجستير في تخصص التمويل والمنشآت المالية، كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت 2010.

صدر لها:

- ارتطامٌ لم يسمع له دوي (رواية) عن دار المدى - سوريا 2004.
- سعار (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2005.
- عروس المطر (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2006.
- تحت أقدام الأمهات (رواية) عن الدار العربية للعلوم - بيروت 2009.
- قيس وليلى والذئب (نصوص) عن الدار العربية للعلوم - بيروت 2011.
- عائشة تنزل إلى العالم السفلي (رواية) عن الدار العربية للعلوم - بيروت 2012.

الجوائز:

- حائزة على جائزة الدولة التشجيعية عن روايتها "سعار" 2006/2005.
- حائزة على المركز الأول في مسابقة هيئة الشباب والرياضة 2003 - فرع القصة القصيرة.
- حائزة على المركز الثالث في مسابقة الشيخة باسمة الصباح - فرع القصة القصيرة.
- حائزة على المركز الثالث في مسابقة مجلة الصدى للمبدعين 2006 - فرع القصة القصيرة.

http://www.Bothayna.net

Twitter @Bothayna_AlEssa

«لقد قرأتُ لها نصوصًا على قدرٍ مهم ولافتٍ من الصدقِ والرّغبةِ العميقةِ لكسْرِ القلبِ في حضرةِ المستقبل، فليس صدفةً أن تبدأ في كتابتها من حالة الشعر الكثيفة.. الشعرُ هو الأصلُ في مصدرِ ما تكتبُ بثينة منذ اللحظة الأولى».

قاسم حداد (الأنباء – 2003)

«عرفتُها قاصّة، وتابعتُها، بين آونةٍ وأخرى، شاعِرةً مُرهفة، و هاهي – أحسِدُها – روائية، مؤهلة لأن تحتلّ موقعاً تجريبياً مميزاً».

إسماعيل فهد إسماعيل (القبس – 2005)

«بثينة العيسى روائيّة كويتيّة شابّة، قدّمت لساحةِ الروايةِ الكويتية والخليجية رواياتٍ لافتةٍ بفنّيتِها العالية، التي جاءت لتؤكد موهبتها الروائية واهتمامها بالقضايا الاجتماعية الكويتية».

طالب الرفاعي (الحياة – 2005)

«بثينة العيسى كاتبة رواية مُهمّة، فهي لا تشبهُ أحدًا ممن حولها ولا تتشابَه مع أحَد، لها صوتُها وعوالمها وفرادتها الإبداعيّة منذ بواكيرها وحتى رائعتها 'عروس المطر'».

ناصر الظفيري (الجريدة – 2010)

«.. فـ بثينة تكتبُ كما لو أنها تغرفُ من بحيرةٍ رائقةٍ من السّحرِ الرّوائي بكلّ بساطةٍ وعفويةٍ آسِرة».

سعدية مفرّح (سين.. نحو سيرة ذاتية ناقصة – 2011)

«منذ روايتها الأولى استطاعت بثينة العيسى أن تؤكد حضورها كروائية مبدعة ذات موهبة عالية تختلف عن أبناء وبنات جيلها من الشباب الواعد، وبعد ستة رواياتٍ أستطيع أن أقول – بكل ثقة – بأنها هي مستقبل الرواية الحديثة في الكويت».

ليلى العثمان (ندوة: بثينة العيسى وإطلالة من غرف النقد، رابطة الأدباء (16/5/2012)



ISBN 978-614-01-0538-6


لوحة الغلاف: سارة الهندي – تصميم الغلاف: سامح خلف